# ســــورة الأنفــــال

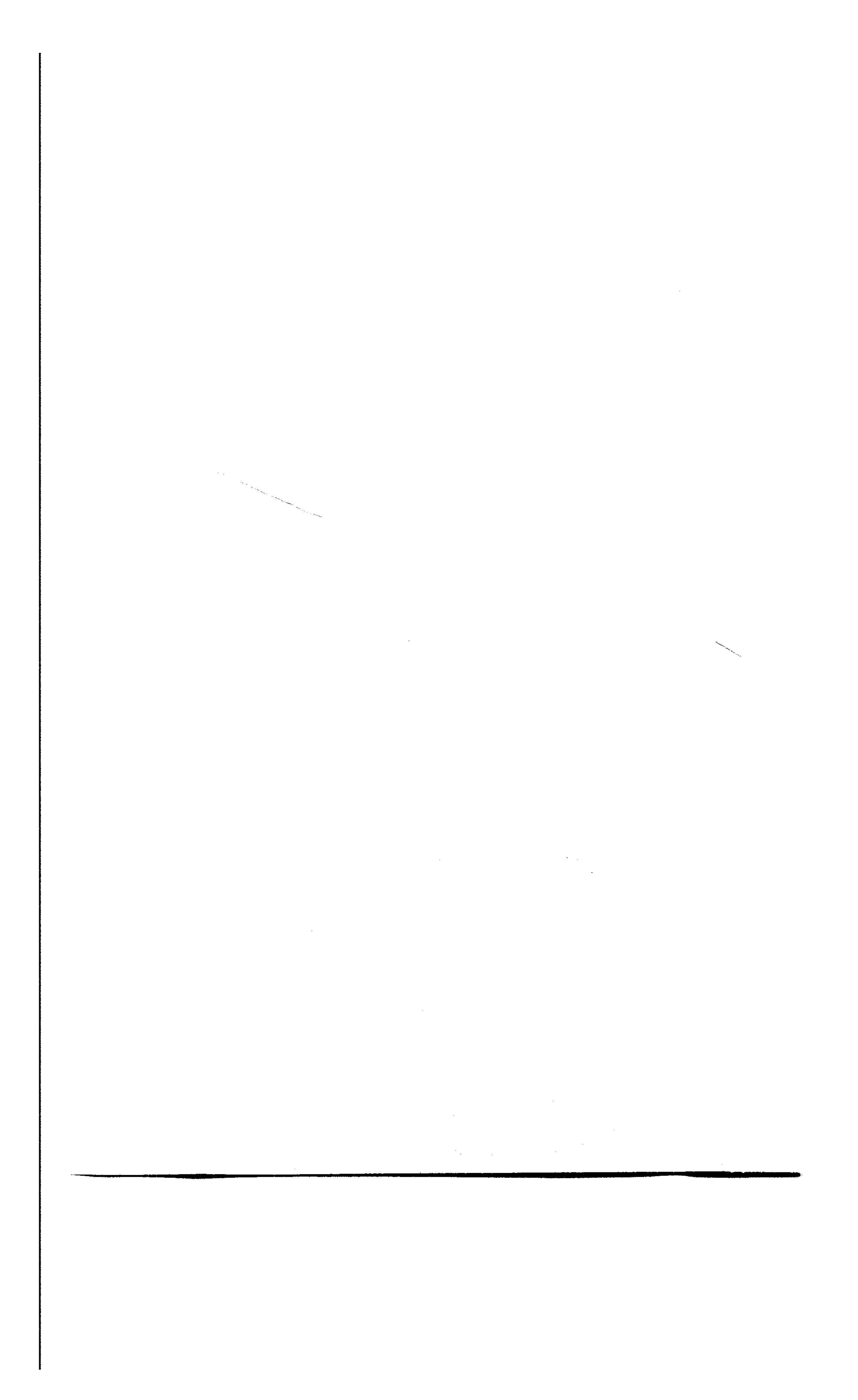
## عرض وتحليل

دكتور

**منيع عبد الحليم محمود**

أستاذ التفسير وعلوم القرآن

وعميد كلية أصول الدين - القاهرة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ﴾



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آل بيته وأصحابه الأطهار الطيبين.

## بين يدى سورة الأنفال

كانت هذه السورة معروفة بهذا الاسم منذ عهد النبى ﷺ وأصحابه الكرام البررة، فقد روى سعد بن أبى وقاص قال: لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى، ذا الكتيفة فأتيت به النبى ﷺ فقال: (اذهب فاطرحه فى القبض) قال فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله، من قتل أخى وأخذ سلبى، قال فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لى رسول الله ﷺ: (اذهب فخذ سلبك)[١].

ومما يدل أيضاً على كونها كانت معروفة بهذا الاسم من الصحابة رضوان الله عليهم ما رواه سعيد بن جبير، فقال:

قلت: لابن عباس (سورة الأنفال). قال: (نزلت فى بدر)[٢].

ولعل هذا الاسم جاء من ذكر حكم الأنفال منها وافتتاحها بالسؤال عنها.

وقد أورد الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى: اخرج أبو الشيخ عن

---

(١) رواه أحمد.

(٢) أخرجه البخارى.

سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس (سورة الأنفال) قال: (تلك سورة بدر)[١].

وموقع وزمن نزول السورة كما اتفق عليه الجميع سواء من المحدثين أو المفسرين هو غزوة بدر ويروى فى ذلك عن ابن اسحاق:

أنزلت فى أمر بدر سورة الأنفال بأسرها، وكانت غزوة بدر فى رمضان من العام الثانى للهجرة بعد عام ونصف من يوم الهجرة، وذلك بعد تحويل القبلة بشهرين، وكان ابتداء نزولها قبل الانصراف من بدر فإن الآية الأولى منها نزلت والمسلمون فى بدر قبل قسمة مغانمها، كما دل عليه حديث سعد بن أبى وقاص والظاهر أنها استمر نزولها إلى ما بعد الانصراف من بدر.

وقد أورد صاحب الكشاف وبعض روايات أسباب النزول ما يترتب عليه آن آية: ﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ـ إلى ـ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾. نزلت بعد الآية السابقة عليها أو السورة بمدة زمنية طويلة، ونرى نحن ونتفق فى ذلك مع الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، فى التحرير والتنوير، حيث يقول: إن الوقت المستحضر بقوله ﴿ الآن ﴾ هو زمن نزولها، وهو الوقت الذى علم الله عنده انتهاء الحاجة إلى ثبات الواحد من المسلمين للعشرة من المشركين، بحيث صارت المصلحة فى ثبات الواحد لاثنين، لا أكثر، رفقاً بالمسلمين واستبقاء لعددهم[٢].

وترتيب نزول هذه السورة يأتى بعد سورة البقرة ولكن ليس معنى

---

(١) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى.
(٢) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

ذلك أن أى سورة فى القرآن لا يبدأبها إلا بعد انتهاء الأولى ولكن الوضع العام الذى كان يحدث أنه قد يبدأ نزول سورة قبل انتهاء التى قبلها ويمكن أن يكون هذا هو الذى حدث بالنسبة لسورة الأنفال حيث تكون قد انتهت قبل انتهاء سورة البقرة ويعلل ذلك الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بقوله:

لأن الأحكام التى تضمنتها سورة الأنفال من جنس واحد وهى أحكام المغانم والقتال، وتفننت أحكام سورة البقرة افانين كثيرة من أحكام المعاملات الاجتماعية، ومن الجائز أن تكون البقرة نزلت بعد نزولها بقليل سورة آل عمران، وبعد نزول آل عمران بقليل نزلت الأنفال، فكان ابتداء نزول الأنفال قبل انتهاء نزول البقرة وآل عمران.

وقد عدت السورة التاسعة والثمانين فى عداد نزول سورة القرآن فى رواية جابر بن زيد عن ابن عباس، وأنها نزلت بعد سورة آل عمران وقبل سورة الأحزاب.

وفى عد أهل المدينة ومكة والبصرة: ست وسبعون آية وفى عد أهل الشام سبع وسبعون آية، وفى عد أهل الكوفة خمس وسبعون آية[١].

أما عن ظروف وملابسات نزول هذه السورة: فإن ذلك من الوضوح بمكان حيث أن مبدأ الجهاد الذى تجسد فى أكمل صوره فى غزوة بدر الكبرى كان فى حاجة إلى أن يوضع فى إطار عام من التقنين والتنظيم بحيث يأخذ الشكل العام الذى تتابع بعد ذلك على المراحل الزمنية للأمة الإسلامية فكتبت لها الحياة والانتشار وكانت خير أمة أخرجت للناس وكما يقول الأستاذ سيد قطب بحق:

هذه السورة نزلت فى غزوة بدر الكبرى.. وغزوة بدر - بملابساتها

---

(١) المرجع السابق.

وبما ترتب عليها فى تاريخ الحركة الإسلامية، وفى التاريخ البشرى جملة- تقوم معلماً ضخماً فى طريق تلك الحركة وفى طريق هذا التاريخ.

وقد سمى الله ـ سبحانه ـ يومها: (يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) كما أنه جعلها مفرق الطريق بين الناس فى الآخرة كذلك لا فى الأرض وحدها، ولا فى التاريخ البشرى على هذه الأرض فى الحياة الدنيا وحدها، فقال سبحانه: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ .. ﴾(١).

وقد ورد أن هذه الآيات نزلت فى الفريقين اللذين التقيا يوم بدر.. يوم الفرقان.. لا فى الدنيا وحدها ولا فى التاريخ البشرى على الأرض وحدها، ولكن كذلك فى الآخرة وفى الأبد الطويل. وتكفى هذه الشهادة من الجليل سبحانه لتصوير ذلك اليوم وتقديره.

## فى مقاصد سورة الأنفال:

١ ـ بيان أحكام الأنفال وكيفية تقسيمها.

٢ ـ بيان المؤمنين الذين يتولاهم سبحانه بعنايته ورعايته ونصره.

---

(١) سورة الحج آية ١٩ ـ ٢٤.

٣ ـ ذكر غزوة بدر واستجابة الله تعالى لاستغاثة المسلمين.

٤ ـ بيان أن النصر من عند الله العزيز الحكيم.

٥ ـ النهى عن الفرار يوم الزحف.

٦ ـ امتنان الله على المؤمنين بالقوة والتأييد.

٧ ـ أمر المؤمنين بالثبات والصبر والاتحاد وعدم التنازع.

٨ ـ الأمر بالاستعداد التام للمعركة.

٩ ـ المطلب بأن تكون النصرة للدين نصب أعين المؤمنين.

١٠ ـ ايضاح سبب خروج المسلمين إلى بدر.

١١ ـ بيان مواقع الجيوش وصفات ماجرى فى بدر من قتال.

١٢ ـ تذكير النبى بنعمة الله عليه فى هجرته من مكة إلى المدينة المنورة.

١٣ ـ بيان قيمة الرسول ﷺ فقد كان فى مكة أماناً لأهلها فلما فارقهم فقد حق عليهم العذاب فى الدنيا بما اقترفوا من الصد عن المسجد الحرام وكذلك من استمر على كفره ومات فقد حق عليه العذاب فى الآخرة.

١٤ ـ تحذير للمشركين بالامتناع عن مهاجمة الإسلام وإن عادوا إلى القتال فقد مضت سنة الأولين وكذلك تنبيه المسلمين إلى مكائد المنافقين.

١٥ ـ أحكام العهد بين المسلمين والكفار وما يترتب على نقضهم العهد، ومتى يحسن السلم، وأحكام الأسرى.

وأحكام المسلمين الذين تخلفوا فى مكة بعد الهجرة، وولايتهم وما يترتب على تلك الولاية[١].

هذه مقدمة عامة للسورة الكريمة أو اطلالة عليها، ولعلنا من خلال دراستنا التحليلية لها نصل إلى المنهج السليم الذى يرضى عنه الله ورسوله ﷺ

***دكتور منيع عبد الحليم محمود***

---

(١) ينظر فى ذلك فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب وتفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

بسم الله الرحمن الرحيم

**فى الأنفـــال:**

﴿ يسـأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

**معنى المفردات:**

نزلت هذه السورة فى غزوة بدر وغنائمها.

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ ﴾ : الخطاب للنبى ﷺ والســائلون هم الصحابة، والأنفال هى الغنائم فى رأى عند المفسرين وفى رأى آخر هى ما ينفله الإمام لبعض الجيش من الغنيمة زيادة على نصيبه فى التقسيم وسنعرض لذلك في المعنى العام بالتفصيل.

﴿ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾: أى الحكم فيها لله والرسول لا لكم.

﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾: أى اتفقوا وائتلفوا، ولا تنازعوا.

وقال ابن عطية: يراد بها فى هذا الموضع نفس الشيء وحقيقته.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾: يريد فى الحكم فى الغنائم كما عبر بذلك عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: (نزلت فينا أصحاب بدر حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزع الله الأنفال من أيدينا، وجعلها لرسول الله ﷺ نقسمها على السواء، فكان فى ذلك تقوى الله وطاعة رسوله واصلاح ذات البين)[١].

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل للإمام الحافظ أبى القاسم محمد بن أحمد بن جزى الكلبى الغرناطى.

## سبب النزول للآية:

روى الإمام أحمد بسنده عن سعد بن أبى وقاص قال:

(لما كان يوم بدر وقتل أخى عمير قتلت سعيد بن العاص وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكتيفة فأتيت به النبى ﷺ فقال: «اذهب فاطرحه فى القبض» قال: فرجعت وبى ما لا يعلمه إلا الله، من قتل أخى وأخذ سلبى، قال: فما جاوزت إلا يسيراً حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لى رسول الله ﷺ: «اذهب فخذ سلبك»(١).

سبب ثان لنزول الآية: روى الإمام أحمد بسنده عن أبى أمامة قال: سألت عبادة عن الأنفال فقال: (فينا أصحاب بدر، نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا فانتزعه الله من أيدينا وجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه رسول الله ﷺ عن بواء يقول عن سواء(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد وهناك روايات أخرى للإمام أحمد وأبو داود والترمذى والطبرى تؤدى نفس المعنى.

(٢) أردنا أن نضع فى السياق العام لسبب النزول رواية للإمام أحمد تجمل كثير من الروايات له أيضاً ولكن حتى لا يغمض الأمر على من أراد التفصيل نذكر هذه الرواية الموسعة للإمام أحمد أيضاً بسنده عن عبادة بن الصامت فى الهامش فتكون كالشرح لما سبق قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً، فألقى الناس، فهزم الله تعالى العدو، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو: لستم بأحق به منا، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به، فنزلت ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ...﴾ فقسمها رسول الله ﷺ بين المسلمين وكان رسول الله ﷺ إذا أغار أرض العدو نفل الربع، فإذا أقبل راجعا نفل الثلث، وكان (يكره الأنفال) ورواه أيضاً الترمذى وقال عنه حسن صحيح ورواه أيضاً ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه وقال عنه صحيح الاسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

**المعنى التفصيلى العام للآية:**

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ ﴾:

بقرائتنا لأسباب نزول الآية نجد أنه يمكن وضع معنى الأنفال على ستة أوجه نختار منها الرأى الراجح بإذن الله تعالى:

الأول: أنهــا الغنائم وهذا رواه عكرمـة عن ابن عـبـاس وبـه قـال: الحسن، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، والضحاك، وأبو عبيدة، والزجاج، وابن قتيبة فى آخرين، وواحد الأنفال: نفل، قال لبيد: إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثى وعجل.

الثانى: أنها ما نفله رسول الله ﷺ القاتل فى سلب قتيله.

الثالث: أنها ما شذ من المشركين إلى المسلمين من عبد أو دابة بغير قتال، قاله عطاء هذا والذى قبله مرويان عن ابن عباس أيضاً.

الرابع: أنه الخـمس الذى أخـذه رسـول الله ﷺ من الغنائم، قـاله مجاهد.

الخامس: أنه أنفال السرايا، قاله على بن صالح بن محمد. وحكى عن الحسن قال: هى السرايا التى تتقدم أمام الجيوش.

السادس: أنهـا زيادات يؤثر بهـا الإمـام بعض الجـيـش لمـا يراه من المصلحة ذكره الماوردى.

وفى عن قولان:

الأول: أنها زائدة، والمعنى: يسألونك الأنفال، وكذا قرأ سعد بن أبى وقاص، وابن مسعود، وأبى بن كعب، وأبو العالية ﴿ يسألونك الأنفال ﴾ بحذف (عن).

الثانى: أنها أصل، والمعنى يسألونك عن الأنفال لمن هى؟ أو عن حكم الأنفال، ذكر أنهم إنما سألوا عن حكمها لأنها كانت حراماً على الأمم قبلهم[١].

باستقرائنا لهذه الآراء نجد أن الرأيين الأول والثانى هما الأرجح فى نظرنا وذلك بالنسبة للأول:

أنه أقرب إلى التناسب مع السؤال الوارد فى شأن تقسيم المغانم والتى وردت الروايات بأنه كان عند الاختلاف فى أصل استحقاقها، لأنه كذلك أنسب لفهم التذييل الوارد فى آخر الآية قول الله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

أما الرأى الثانى: فإنه يتعلق بصلة الأصل اللغوى لكلمة الأنفال وهو بمعنى الزيادة ويمكن أن يشمل هذا المعنى الوجه الثالث والخامس والسادس وأيضاً يشمل قول من قال إنهم سألوا عن حكم الغنائم من ناحية الشرعية هل هى محرمة عليهم كالأمم السابقة أم حلال لهم؟

وعلى هذا نرى أنه يمكن وضع المعنى العام للفظ (الأنفال) هنا بمعنى شمولى، بحيث يشمل الغنائم فى الحرب سواء أراد الإمام تقسيمها على المحاربين فى سبيل الله بالتساوى أو زيادة بعض الأفراد على ما أعطى لغيرهم نتيجة ظروف معينة كالبأس الشديد فى الحرب أو الأعمال الفدائية التى يقوم بها أناس من نوعية خاصة إلى غير ذلك من أعمال البطولة الحربية.

وبعد ذلك يجيب الله سبحانه وتعالى ﴿ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير للإمام ابن الجوزى.

فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تحديد قاطع من الله سبحانه وتعالى بأن المسلمين إذا انطلقوا فى أمر بأن مرده فى هذه الحالة والحكم فيه إلى الله سبحانه وتعالى ورسوله الكريم ﷺ وذكر الرسول ﷺ مع الله تعالى لتعظيم شأنه وإظهار شرفه والايذان بأن طاعته عليه الصلاة والسلام طاعة لله تعالى ، وقال غير واحد من المفسرين:

إن الجمع بين الله تعالى ورسوله ﷺ أولاً: لأن اختصاص الله تعالى بالأمر والرسول ﷺ بالامتثال.

ثانياً: توسيط الأمر باصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بالطاعة لإظهار كمال العناية بالاصلاح بحسب المقام وليندرج الأمر به بعينه تحت الأمر بالطاعة.

ولعل دراسة متأنية لمعانى هذه الآية تبين لنا التالى بالإضافة لما سبق: ﴿ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾ بالرد والمواساة فيما حال بأيديكم.

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فى كل ما يأمر به وينهى عنه فإن فى ذلك مصالح لا تعلمونها وإنما يعلمها الله تعالى ورسوله ﷺ واجتنبوا ما أنتم فيه من المشاجرة فى الغنائم والاختلاف الموجب لشق عصا الطاعة وسخطه سبحانه وتعالى أو فاتقوه فى كل ما تأتون وتذرون فيدخل ما هم فيه دخولاً أولياً، وأصلحوا ما بينكم من الأحوال بترك الغلول ونحوه، وعن السدى بعدم التساب.

**وعن عطاء كان الاصلاح بينهم (أن دعاهم رسول الله ﷺ وقال: اقتسموا غنائمكم بالعدل: فقالوا: قد أكلنا وانفقنا فقال ﷺ : ليرد بعضكم على بعض).**

وتكرار ذكر الاسم الجليل فى الأمرين لتربية المهابة وتعليل الحكم.

وقوله تعالى: ﴿إن كُنتُم مُّؤْمنينَ﴾ متعلق بالأوامر الثلاثة، والجواب محذوف ثقة بدلالة المذكور عليه أو هو الجواب على الخلاف المشهور وأياما كان فالمراد بيان ترتب ما ذكر عليه لا التشكيك فى إيمانهم وهو يكفى فى التعليق بالشرط، والمراد بالإيمان التصديق، ولا خفاء فى اقتضائه ما ذكر على معنى أنه من شأنه ذلك لا لازم له حقيقة. قد يراد بالإيمان الإيمان الكامل والأعمال شرط فيه أو شطر، فالمعنى إن كنتم كاملى الإيمان فإن كمال الإيمان يدور على تلك الخصال الثلاثة: الاتقاء - الاصلاح - إطاعة الله ورسوله(١).

**من معالم الإيمان:**

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

**معانى المفردات:**

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾: أى الكاملون الإيمان.

﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: أى خافت وفزعت خاصة إذا انتوت المعصية وذكر الله أمامها حصل لها حال الخشية منه سبحانه وتعالى.

﴿زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: أى قوى تصديقهم ويقينهم خلافاً لما قال إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وأن زيادته إنما هى بالعمل.

---

(١) تفسير الألوسى (بتصرف).

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ : أى يفوضون الأمر إليه سبحانه وتعالى.

﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ : تنبيه من الله سبحانه وتعالى وتفصيل لأعمالهم بعد ما ذكر من معتقداتهم.

﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ : أى المتصفون بهذه الصفات هم المؤمنون حق الإيمان.

﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى فى الجنة وفى علاقتهم بالله تعالى.

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

فى الآية السابقة كان هناك حكم من الله سبحانه وتعالى وفصل فى قضية وقعت بين أطراف من المسلمين صحابة رسول الله ﷺ وختم الله تعالى الآية بقوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فاشتراط الإيمان فى الآية السابقة لبيان موقف المسلم الحق يناسبه على الفور بيان الصفات التى يجب أن يتحلى بها المؤمن سليم العقيدة الكامل الإيمان فإن التعبير بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ يراد به المؤمن الكامل الإيمان (فإنما) هنا للتأكيد والمبالغة والحصر.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

فى توضيح الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية لموقف المؤمن فيه إشعار بالحث على التزام طاعة الرسول ﷺ فيما أمر به من قسمة الغنائم وأيضاً فى كل ما أمر به كذلك من أمور الإسلام فإن معنى الآيات العام يعطى الدلالة أن صفات المؤمنين المذكورة فيها وردت باعتبارها هى

الموقف العام للمؤمن فى كل أمور حياته وهذا لا يقتصر على موقف دون آخر وإن كان يتناول المناسبة التى جاء فيها تناولاً أولياً.

والمؤمن يختلف بالتأكيد فى الوضع الإسلامى عن وضع المنافق فهو كما يقول الإمام ابن عباس فيما يرويه عنه الإمام ابن كثير بسنده فى وقوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ . قال: المنافقون لا يدخل قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه. ولا يؤمنون بشيء من آيات الله ولا يتوكلون ولا يصلون إذا غابوا ولا يؤدون زكاة أموالهم فأخبر الله تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين بقوله ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فأدوا فرائضه.

وقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ هل ينافى قوله تعالى ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ يجيب عن ذلك الإمام الألوسى فى تفسير بقوله: (الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم أى فزعت استعظاماً لشأنه الجليل وتهيباً منه جل وعلا والاطمئنان المذكور فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ لا ينافى الوجل والخوف لأنه عبارة عن ثلج الفؤاد وشرح الصدر بنور المعرفة والتوحيد وهو يجامع الخوف، وإلى هذا ذهب ابن الخازن، ووفق بعضهم بين الآيتين بأن الذكر فى إحداهما ذكر رحمة وفى الأخرى ذكر عقوبة فلا منافاة بينهما.

وأخرج البيهقى وجماعة عن السدى أنه قال فى الآية: هو الرجل يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فيقال له: (اتق الله فيجل قلبه)، وحمل الوجل فيها على الخوف منه تعالى كلما ذكر أبلغ فى المدح من حمله على الخوف وقت الهم بمعصية أو إرادة ظلم. وهذا الوجل فى قلب المؤمن (كضرمة السعفة) كما جاء عن عائشة رضى الله تعالى عنها[1].

(١) تفسير الألوسى.

وما يزيدنا إدراكاً للهدف العام من كلمة (الوجل) فى الآية الشريفة قول الإمام القرطبى فى تفسيره:

وصف الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية بالخوف والوجل عند ذكره. وذلك لقوة إيمانهم ومراعاتهم لربهم وكأنهم بين يديه، ونظير هذه الآية: ﴿ بشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ﴾ وقال: (وتطمئن قلوبهم بذكر الله) فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب. والوجل: الفزع من عذاب الله، فلا تناقض، وقد جمع الله بين المعنيين فى قوله ﴿ الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلي ذكر الله ﴾. أى تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله وإن كانوا يخافون الله. فهذه حالة العارفين بالله، الخائفين من سطوته وعقوبته، لا كما يفعله الجهال العوام والمبتدعة الطعام من الزعيق والزئير ومن النهاق الذى يشبه نهاق الحمير فيقال لمن تعاطى ذلك وزعم أن ذلك وجد وخشوع، لم تبلغ أن تساوى حال الرسول ولا حال أصحابه فى المعرفة بالله والخوف منه، والتعظيم لجلاله، ومع ذلك فكانت حالهم عند المواعظ الفهم عن الله والبكاء خوفاً من الله. ولذلك وصف الله أحوال أهل المعرفة عند سماع ذكره وتلاوة كتابه فقال: ﴿ وإذا سمعوا ما نزل إلي الرسول تري أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ فهذا وصف حالهم وحكاية مقالهم، ومن لم يكن فليس على هديهم ولا على طريقتهم[١].

قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

---

(١) تفسير القرطبى.

يَتَوَكَّلُونَ﴾ أى إذا تلى القرآن على المؤمنين زادهم إيماناً فـ هو معنى الإيمان وهل هو يزيد وينقص كما نأخذ ذلك من قوله تعالى ﴿ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ ذلك ما يحدثنا عنه بالتفصيل صاحب كتاب الإسلام والإيمان الإمام عبدالحليم محمود رضى الله عنه:

**فى التعريف بالإيمان:**

يقول الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ويقول رسول الله ﷺ، فيما رواه البخارى عن أنس رضى الله عنه: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

وفيما رواه البخارى بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (فوالذى نفسى بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده).

وفيما رواه البخارى: عن أنس قال: قال النبى ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين).

وفيما رواه البخارى: عن سالم بن عبدالله عن أبيه، أن رسول الله ﷺ، مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه فى الحياء، فقال رسول الله ﷺ: (دعه فإن الحياء من الإيمان).

وقد كتب الإمام البخارى رضى الله عنه فى صحيحه، كتاباً عن الإيمان سار فيه على هدى الكتاب والسنة والصحابة والتابعين وسلف الأمة، وقد قدم الكتاب بمقدمة، يستدل فيها بآيات من الكتاب الكريم، وكانت أحاديث الإيمان كلها موجهة ليتيقن بأن الإيمان قول وفعل.

يقول الإمام البخارى عن الإيمان: وهو قول وفعل، ويزيد وينقص، ثم أخذ يبرهن على رأيه بالآيات القرآنية نذكر منها:

قال الله تعالى:

﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾(١).

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾(٢).

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾(٣).

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾(٤).

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾(٥).

---

(١) سورة الفتح آية: ٤.
(٢) سورة الكهف آية: ١٣.
(٣) سورة مريم آية: ٧٦.
(٤) سورة محمد آية: ١٧.
(٥) سورة المدثر آية: ٣١.

﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذه إيمَانًا فَأَمَّا الَّذينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيمَانًا ﴾(١).
﴿ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيمَانًا ﴾(٢).
﴿ وَمَا زَادَهُمْ إلاَّ إيمَانًا وتسليما ﴾(٣).
﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمنُونَ ﴾(٤).

وإذا كان هذا رأى البخارى رضى الله عنه، فإن أبا الحسن على بن خلف يقول فى شرح صحيح البخارى: (مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها، أن الإيمان: (قول وعمل، ويزيد وينقص).

ويقول عبدالرزاق، حسبما يذكره الإمام النووى فى شرح مسلم: سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا: سفيان الثورى، ومالك بن أنس وعبدالله بن عمر، والأوزاعى، ومعمر بن راشد، وابن جريج، وسفيان بن عيينه، يقولون: (الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص).

وهذا قول ابن مسعود، وحذيفة، والنخعى، والحسن البصرى، وعطاء وطاوس، ومجاهد، وعبدالله بن المبارك.

ويتابع عبدالرزاق الحديث فيقول: فالمعنى الذى يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين، هو اتيانه بهذه الأمور الثلاثة: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع، أنه لو أقروعمل على غير علم منه ومعرفة بربه، لا يستحق اسم مؤمن، ولو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب ما عرف من التوحيد، لا

(١) سورة التوبة آية: ١٢٤.
(٢) سورة آل عمران آية: ١٧٣.
(٣) سورة الأحزاب آية: ٢٢.
(٤) سورة المؤمنون آية: ١.

يستحق اسم مؤمن، وكذلك إذا أقر بالله تعالى، وبرسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولم يعمل بالفرائض، لا يسمى مؤمناً بالاطلاق، وإن كان فى كلام العرب يسمى مؤمناً بالتصديق، فذلك غير مستحق فى كلام الله تعالى لقوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

فأخبرنا سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته.

وما ذكره عبدالرزاق يؤيده ابن بطال فى باب من قال: (الإيمان هو العمل) من شرح صحيح البخارى فيقول: فإن قيل قد قلتم إن الإيمان هو التصديق.

قيل التصديق هو أول منازل الإيمان ويوجب للمصدق الدخول فيه، ولا يوجب له استكمال منازله، ولا يسمى مؤمناً مطلقاً.

هذا مذهب جماعة أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل.

قال أبو عبيد: وهو قول مالك، والثورى، والأوزاعى ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم.

قال ابن بطال: وهذا المعنى أراد البخارى رحمه الله إثباته فى كتاب الإيمان، وعليه بوب أبوابه كلها، فقال:

باب أمور الإيمان.

باب الصلاة من الإيمان.

باب الزكاة من الإيمان.

باب الجهاد من الإيمان، وسائر أبوابه.

وإنما أراد الرد على المرجئة فى قولهم: إن الإيمان قول بلا عمل، وتبيين، غلطهم وسوء اعتقادهم، ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة.

وينهج الإمام الطبرى هذا النهج أيضاً فيقول: الإيمان - كلمة جامعة -: الإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل.

بيد أن العامة - وهى دائماً الأكثرية - انتهت بالإيمان إلى أن أصبح - على حد تعبير الشيخ محمد عبده: يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان، وليس له أثر فى الأفعال: لأنه لم يقع تحت نظر العقل، ولم يلحظه وجدان القلب، بل أغلقت عليه خزانة الوهم. ومثل هذا الذى يسمونه إيماناً لا يفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن. ا. هـ.

وهذا الذى غلب على العامة من معنى الإيمان أثر على بعض علماء الكلام أنفسهم فتناقشوا نقاشاً طويلاً فى معنى الإيمان، وهل هو تصديق بالقلب فحسب بالغاً ما بلغ هذا التصديق من الضعف والسلبية؟ أو أنه تصديق وفعل؟ وقد أراق المتكلمون من المداد لتحبير العشرات من الصفحات فى هذا الموضوع.

وإذا تدخل العامة فى الشئون العلمية: وإذا تأثر العلماء بآراء العامة، متخلين بذلك عن القيادة الرشدة، فإن الأمر ينتهى لا محالة بنزول العلماء إلى المستوى الشعبى، شاعرين بهذا النزول أو غير شاعرين، ومن هنا كان الرأى الذى يسود فى بعض أوساط المتكلمين، أن الإيمان مجرد

التصديق مهما كانت منزلة هذا التصديق من الهزل والسلبية وكان من فضل الله علينا أن يبين لنا سبحانه مقاييس للإيمان فى كتابه الكريم.

والصور الإيمانية فى هذا الكتاب الخالد لا تنكاد وتخضى.

وكان من فضل الله أيضاً أن الرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بكلامه، وفعله وسيرته، يحقق مثلاً أعلى للإيمان كما أراد الله ورسوله ونريد ـ بتوفيق الله ـ فى حديثنا عن الإيمان أن نتخذ الأساس: القرآن الكريم، وأحاديث صحيحة رواها الإمام البخارى والإمام مسلم فى أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى، وقد ذكرنا بعض الآيات القرآنية فيما سبق، أما الأحاديث:

فعن أبى هريرة رضى الله عنه، يقول رسول الله صلوات الله عليه وسلامه: (الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان)[١].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: (الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها أماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[٢].

وحينما بين سادتنا العلماء المحققون ـ الذين أخلصوا لله ورسوله ـ تلك الشعب عن طريق الأحاديث الشريفة التى وضحت الإيمان، وعن طريق الآيات القرآنية الكريمة، التى تحدثت عن الإيمان: قسموا تلك الشعب إلى ما يختص منها بالقلب، وما يختص باللسان، وما يختص بالبدن، أى أن الإيمان يغمر الكيان الإنسانى كله: اعتقاداً وقولاً وفعلاً.

(١) رواه البخارى.

(٢) رواه الإمامان: البخارى ومسلم رضى الله عنهما.

ومن الأحاديث الشريفة نتبين أن الحب فى الله والبغض فى الله من الإيمان، وأنه: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)(١).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: (والله لا يؤمن. قيل من يارسول الله؟ قال: الذى لا يأمن جاره بوائقه)(٢).

وروى الشيخان بسندهما أن رسول الله ﷺ قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذى جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت).

وأن الجهاد من الإيمان، يقول صلوات الله وسلامه عليه: (انتدب الله لمن خرج فى سبيله، لا يخرجه إلا الإيمان بى، وتصديق برسلى: إن ارجعه بما نال من أجراً وغنيمة، أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سرية ولوددت أنى اقتتل فى سبيل الله ثم أحيا: ثم أقتل ثم أحيا ثم اقتل)(٣).

ومنها نتبين أن قيام ليلة القدر من الإيمان: قال رسول الله ﷺ: (من يقم ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)(٤).

والانصاف من النفس من الإيمان:

أخرج البخارى عن عمار رضى الله عنه: ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: (الانصاف من النفس، وبذل السلام للعالم، والانفاق من الاقتار).

وبذل السلام للعالم من الإيمان.

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) أخرجه الشيخان.

(٣) أخرجه الإمام البخارى رضى الله عنه عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤) أخرجه البخارى رضى الله عنه عن أبى هريرة رضى الله عنه.

أخرج البخارى عن عبدالله بن عمرو رضى الله عنهما أن رجلاً سأل النبى ﷺ: أى الإسلام خير؟ قال: (تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف).

وتطوع قيام رمضان من الإيمان:

عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من قام رمضان **إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه)**[١].

**وصوم رمضان إيماناً واحتساباً من الإيمان:**

عن أبى هريرة رضى الله عنه - فيما رواه الإمام البخارى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه).

والصلاة من الإيمان: بل لقد عبر الله عنها بالإيمان فى قوله تعالى: ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾[٢].

وإذا ما تغلغل الإيمان فى النفس وجد المؤمن حلاوة الإيمان، وهو

---

(١) رواه البخارى.

(٢) يقول الإمام البخارى: باب الصلاة من الإيمان وقول الله تعالى ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ يعنى صلاتكم عند البيت. وحدثنا عمرو بن خالد حدثنا زهير قال حدثنا أبو إسحاق عن البراء (أن النبى ﷺ: كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده أو قال أخوا له من الأنصار وأنه صلى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلى قبل بيت المقدس وأهل الكتاب فلما ولى وجهه قبل البيت أنكروا ذلك) قال زهير حدثنا أبو إسحاق عن البراء فى حديثه هذا أنه مات على القبلة قبل أن تحول رجال وقتلوا فلم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾.

لاينعم بحلاوة الإيمان إلا: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود فى الكفر، كما يكره أن يقذف فى النار)[١].

وأساس الإيمان على كل حال هو الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

وهذا الأساس كأساس القصر بالضبط وكما لا يطلق على أساس القصر أنه قصر فكذلك لا يطلق على أساس الإيمان أنه إيمان كامل، وكما لا يكون القصر بدون الأساس فإنه لا يوجد الإيمان بدون الشهادتين.

وهذا الأساس نفسه يتبلور فى: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمد رسول الله.

**فى التـــوكل:**

ثم تمضى بنا الآية بعد ذلك إلى قول الله تعالى ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يتوكلون ﴾ وعنها يقول الإمام بن كثير: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ أى لا يرجون سواه ولا يقصدون إلا إياه ولا يلوذون، إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا منه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف فى الملك وحده لا شريك له ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، ولهذا قال سعيد بن جبير: التوكل على جماع الإيمان[٢].

إن المعنى الحقيقى للتوكل هو أن يعتقد الإنسان اعتقاداً جازماً، وأن

---

(١) رواه البخارى.

(٢) تفسير ابن كثير.

من وراء الأسباب الظاهرة إرادة الله مشرفة على تلك الأسباب فى أسسها وبواعثها، وهى مشرفة على الأسباب فى غاياتها ونهاياتها، وعلى الإنسان أن يعمل كما أمر الشرع، وعليه أن يكل أمر النتيجة إلى الله سبحانه.

ولقد كان رسول الله ﷺ أمام المتوكلين، وكان إمام المجاهدين المكافحين الآخذين بالأسباب، وسيدنا أبو بكر رضى الله عنه حينما بويع بالخلافة أصبح ذاهباً إلى السوق يتجر كعادته فتكاثر عليه المسلمون قائلين: كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة؟ قال لهم: لا تشغلونى عن عيالى، فإنى أن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع.

حتى فرضوا قوت له وقوت لأهله من بيت المسلمين.

لقد كان كبار الصحابة رضى الله عنهم يعملون ويكتسبون وكانوا مع ذلك من كبار المتوكلين، فالكسب لا ينافى التوكل.

**فى العمـــل:**

بما أن الإيمان: قول وتصديق وعمل.

فقد تناسب ذكر العمل بعد ذكر الاعتقاد بقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾.

فقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ مرفوع على أنه نعت للموصول الأول أبو بدل منه أو بيان له، وقد مدحهم سبحانه وتعالى أولاً بمكارم الأعمال القلبية من الخشية والإخلاص والتوكل وهذا مدح بمحاسن الأعمال القلبية من الصلاة والصدقة.

﴿ أُولَئِكَ ﴾ أى المتصفون بما ذكر من الصفات الحميدة من حيث أنهم كذلك ﴿ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ لأنهم حققوا إيمانهم بأن ضموا إليه ما فضل من أفاضل الأعمال.

أخرج الطبرانى عن الحارث بن مالك الأنصارى أنه مر برسول اللهﷺ فقال: «كيف أصبحت يا حارث قال: أصبحت مؤمناً حقاً. فقال ﷺ: انظر ما تقول فإن لكل شىء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال: عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت نهارى وكأنى انظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها وكأنى انظر إلى أهل النار يتصارخون فيها. قال عليه الصلاة والسلام. (يا حارث عرفت فالزم ثلاثا).

ونصب ﴿ حَقًّا ﴾ على أنه صفة مصدر محذوف فالعامل فيه المؤمنون أى إيماناً حقاً أو هو مؤكد لمضمون الجملة فالعامل فيه حق مقدر، وقيل: إنه يجوز أن يكون مؤكداً لمضمون الجملة التى بعده فهو ابتداء الكلام، وهو مع أنه خلاف الظاهر إنما يتجه على القول بجواز تقديم المصدر المؤكد لمضمون عليها والظاهر منعه كالتأكيد.

واستدل بعضهم بالآية على أنه لا يجوز أن يصف أحد نفسه بكونه مؤمناً حقاً لأنه سبحانه وتعالى: إنما وصف بذلك أقواماً على أوصاف مخصوصة وكل أحد لا يتحقق وجود تلك الأوصاف فيه بل يلزمه أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله تعالى.

وقرر بعضهم وجه الاستدلال بما يشير إليه ما روى عن الثورى أنه قال: من زعم أنه مؤمن بالله تعالى حقاً ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة فقد آمن بنصف الآية ولم يؤمن بالنصف الآخر.

وهذا ظاهر فى أن مذهبه الاستثناء، وهو كما قال الإمام مذهب ابن

مسعود وتبعه جمع عظيم من الصحابة والتابعين، وبه قال الشافعى ونسب إلى مالك وأحمد، ومنعه الإمام الأعظم رضى الله تعالى عنه، وروى عنه أنه قال لقتادة: لم تستثنى فى إيمانك؟ قال: اتباعاً لإبراهيم عليه السلام فى قوله تعالى: ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ فقال له: هلا اقتديت به فى قوله بلى حين قيل له أو لم تؤمن؟ فانقطع قتادة. قال الرازى: كان لقتادة أن يجيب أبا حنيفة عليهما الرحمة ويقول: قول إبراهيم عليه السلام ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ بعد قوله (بلى) طلب لمزيد الطمأنينة وذلك دل على جواز الاستثناء.

وفى الكشف أن الحق أن من جوز الاستثناء إنما جوز إذا سئل عن الإيمان مطلقاً أما إذا قيل: هل أنت مؤمن بالقدر مثلاً فقال: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى لا يجوز لأن التبرك لا معنى له بل للإبهام فيما ليس له فائدة، وأما فى الأول فلما كان الاطلاق يدل على الكمال وهو الإيمان المنتفع به فى الآخرة علق تفاؤلاً وتيمناً، وذلك لأن هذه الكلمة خرجت عن موضوعها الأصلى إلى المعنى الذى ذكر عرف الاستعمال تراهم يستعملونها فى كل ما لهم اهتمام بحصوله شائعاً بين العرب والعجم فلا وجه لقول من قال: إن معنى التبرك ـ أنا اشك فى إيمانى تبركاً ـ وذلك لأن المشيئة عنده غير مشكوكة عنده بل هو تعليق بما لابد منه نظرا إلى أنه السبب الأصلى وأنه تفويض من العبد إلى الله تعالى ومن فوض كفى لا نظرا إلى أن المشيئة غيب معلوم فيكون شكا فى الإيمان، وما أحسن ما نقل عن الحسن أن رجلاً سأله: أمؤمن أنت؟ فقال: الإيمان إيمانان فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب فأنا مؤمن، وإن كنت تسألنى عن قوله

تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ ﴾ إلخ فوالله لا أدرى أمنهم أنا أم لا؟ وهذا ونحوه مما يجعل الخلاف لفظياً، وقد صرح بذلك جمع المحققين عليهم الرحمة.

﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أى كرامة وعلو مكانة على أن يراد بالدرجات العلو المعنوى وقد يراد بها العلو الحسى.

﴿ وَمَغْفِرَةٌ ﴾ عظيمة لما فرط منهم.

﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وهو ما أعد لهم من نعيم الجنة.

اخرج ابن أبى حاتم عن محمد القرظى قال: إذا سمعت الله تعالى يقول رزق كريم فهو الجنة، والكرم كما نقل الواحدى اسم جامع لكل ما يحمد ويستحسن فى بابه فلعل وصف الرزق به هنا حقيقة.

قال بعض المحققين: معنى كون الرزق كريم أن رازقه كريم، ومن هنا وصفوه بالكثرة وعدم الانقطاع إذ من عادة الكريم أن يجزل العطاء ولا يقطعه فكيف بأكرم الأكرمين تبارك وتعالى، وجعله نفسه كريماً على الاسناد المجازى للمبالغة، ولم يذكروا لتوسيط المغفرة، والظاهرة كما قيل تقديمها هنا نكتة، وربما يقال فى وجه ذكر هذه الأشياء الثلاثة على هذا الوجه أن الدرجات فى مقابلة الأوصاف الثلاثة أعنى الوجل والإخلاص والتوكل، ويستأنس له بالجمع والمغفرة فى مقابلة إقامة الصلاة ويستأنس له بما ورد فى غير ما أخبر أن الصلوات مكفرات لما بينها من الخطايا وأنها تنقى الشخص من الذنوب كما ينقى الماء من الدنس، والرزق الكريم بمقابلة الانفاق، والمناسبة فى ذلك ظاهرة، وإلى هذا يشير كلام أبى حيان، أو يقال: قدم سبحانه الدرجات لأنها بمحض الفضل، وذكر بعدها المغفرة لأنها أهم عندهم من الرزق فى اشتراكهما فى كونهما فى مقابلة شىء، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ عن ابن زيد أنه قال

فى الآية: المغفرة بترك الذنوب والرزق الكريم بالأعمال الصالحة فتدبر والله تعالى اعلم بأسرار كلامه(١).

**فى غزوة بـــدر:**

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝٥ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ لها عدة تأويلات منها:

أولاً: أن تكون الكاف فى موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره هذه الحال كحال إخراجك بمعنى أن حالهم فى كراهة تنفيل الغنائم كحالهم فى حالة خروجك للحرب.

ثانياً: أن يكون فى موضع الكاف نصب على أنه صفة لمصدر الفعل المقدر فى قوله ﴿ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ أى استقرت الأنفال لله والرسول استقراراً مثل استقرار خروجك.

ثالثاً: أن تتعلق الكاف بقوله ﴿ يُجَادِلُونَكَ ﴾.

وسنتحدث عن هذه الآراء وغيرها بالتفصيل فى المعنى التفصيلى العام.

﴿ مِن بَيْتِكَ ﴾ يعنى مسكنه بالمدينة إذ أخرجه الله لغزوة بدر.

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للإمام الألوسى.

﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ أى كرهوا قتال العدو لعدم الاستعداد.

﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ : جمل حالية أو مستأنفة وقعت جواباً عن سؤال مقدر نشأ من المعانى والمواقف السابقة.

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ﴾ : يعنى قريشاً أو غيرهم، والعامل فى إذ محذوف تقديره (اذكروا).

﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ بدل من إحدى الطائفتين.

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ : الشوكة عبارة عن السلاح، سميت بذلك لحدتها، والمعنى تحبون أن تلقوا الطائفة التى لا سلاح لها وهى العير.

﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ : يعنى يظهر الإسلام بقتل الكفار وإهلاكهم يوم بدر.

﴿ يُحِقَّ الْحَقَّ ﴾ : متعلق بمحذوف تقديره ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك وليس تكراراً للأول لأن الأول مفعول يريد وهذا تعليل لفعل الله تعالى. ويحتمل أن يريد بالحق الأول الوعد بالنصرة، وبالحق الثانى الإسلام. فيكون المعنى أن نصرهم، ليظهر الإسلام، ويؤيد هذا قوله: ويبطل الباطل أى يبطل الكفر[1].

## سبب النزول:

قال الحافظ بن مردويه بسنده عن أبى أيوب الأنصارى: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: (إنى أخبرت عن عير أبى سفيان أنها مقبلة فهل

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى.

لكم أن نخرج قبل هذه العير لعل الله أن يغنمناها) ؟ فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا فلما سرنا يوماً أو يومين، قال لنا: (ما ترون فى قتال القوم فإنهم قد أخبروا بخروجكم؟) فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو ولكنا أردنا العير، ثم قال: (ما ترون فى قتال القوم؟) فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد ابن عمرو:

إذا لا نقول لك يارسول الله كما قال قوم موسى لموسى ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ﴾.

قال: فتمنينا معشر الأنصار أن لو قلنا كما قال المقداد احب إلينا من أن يكون لنا مال عظم، قال: فأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ وذكر تمام الحديث. ورواه ابن أبى حاتم من حديث ابن لهيعة بنحوه.

وروى ابن مردويه أيضاً من حديث محمد بن عمرو بن علقمة بن أبى وقاص الليثى، عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ إلى بدر حتى إذا كان بالروحاء خطب الناس فقال: (كيف ترون؟) فقال أبو بكر: يارسول الله بلغنا أنهم بمكان كذا وكذا، قال: ثم خطب الناس فقال: (كيف ترون؟) فقال عمر مثل قول أبى بكر، ثم خطب الناس، فقال: (كيف ترون؟) فقال سعد بن معاذ يارسول الله ايانا تريد؟ فوالذى أكرمك وأنزل عليك الكتاب ما سلكتها قط ولا لى بها علم، ولئن سرت حتى تأتى برك الغماد من ذى يمن لنسيرن معك، ولا نكون كالذين قالو لموسى: ﴿ اذهب أنت وربك فقاتلا أنا ههنا قاعدون ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا أنا معكما مقاتلون، ولعلك أن تكون خرجت لأمر وأحدث الله إليك غيره فانظر الذى أحدث الله إليه فامض له، فصل حبال من شئت، واقطع

حبال من شئت، وعاد من شئت، وسالم من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، فنزل القرآن على قول سعد: ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ الآيات[١].

## المعنى التفصيلى العام للآيات:

فى متعلق الكاف فى قول الله تعالى ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴾ خمسة أقوال:

الأول: أنها متعلقة بالأنفال، ثم فى معنى الكلام ثلاثة أقوال:

١ ـ امض لأمر الله فى الغنائم وإن كرهوا، كما مضيت فى خروجك من بيتك وهم كارهون، قاله الفراء.

٢ ـ أن الأنفال لله والرسول ﷺ بالحق الواجب، كما أخرجك ربك بالحق، وإن كرهوا ذلك، قاله الزجاج.

٣ ـ يسألونك عن الأنفال مجادلة، كما جادلوك فى خروجك، حكاه جماعة من المفسرين.

الثانى: أنها متعلقة بقوله: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ﴾ ، والمعنى: أن التقوى والاصلاح خير لكم، كما كان اخراج الله نبيه محمدا خيراً لكم وإن كرهه بعضكم، هذا قول عكرمة.

الثالث: أنها متعلقة بقوله: ﴿ يُجَادِلُونَكَ ﴾ فالمعنى: مجادلتهم إياك فى الغنائم كإخراج الله إياك إلى بدر وهم كارهون، قاله الكسائى.

الرابع: إنها متعلقة بقوله: ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ ، والمعنى: وهم المؤمنون حقاً كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ذكره بعض ناقلى التفسير.

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

الخامس: أن ﴿ كَمَا ﴾ في موضع قسم، معناها: والذى اخرجك من بيتك، قاله أبو عبيدة، واحتج بأن ﴿ مَا ﴾ في موضع (الذى) ومنه قوله: ﴿ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ ﴾(١) قال ابن الأنبارى: وفى هذا القول بعد، لأن الكاف ليست من حروف القسم(٢).

ولنا بعد استعراض هذه الآراء نظرة فيها من ناحية المعنى المبنى على التخريج اللغوى فالأولى أن يكون معنى التشبيه المستفاد من الكاف أن المصلحة كما كانت فى تقسيم الأنفال، وعدم اختصاص البعض بها، كانت كذلك فى اخراج النبى ﷺ من بيته بالحق للقاء العدو مع أن الظاهر عدم ملائمة ذلك اللقاء لما لم يسبقه من الاستعداد، لكن تبين خلاف هذا الظاهر، وكانت النتيجة نصراً وفتحاً مباركاً.

وهذا التخريج أخذنا به لما يلى:

فقد اتفق الجميع فى حالة جعل الكاف للتشبيه سواء كانت فى موضع رفع كما ذهب أبو السعود، أم فى موضع نصب كما حكى القرطبى، أن المعنى: أن حال أهل بدر فى كراهتهم تقسيم الأنفال، كحالهم فى كراهة خروجهم للقتال وللقاء العدو بعد فوات العير.

وهنا يكون التحفظ، فبعد نزول مطلع السورة نزل الجميع على حكم القرآن فى رضا وطمأنينة، لا يعتريهما اعتراض ولا شك ولا كراهة، بل أنهم قد أدركوا سوء ما فعلوا فى تنازعهم عليها قبل ذلك وصورة ذلك ما ورد على لسان عبادة بن الصامت:: (فينا نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيه أخلاقنا) وهذا الإدراك يعنى منهم الندم على الاختلاف قبل

---

(١) سورة الليل آية: ٣.

(٢) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

التقسيم الذى تنافى والكراهة بعد التقسيم، مما يتعارض والتخريجات السابقة.

وعلى العموم فإنها تحكى مشهد اتخاذ القرار فى أول مواجهة عسكرية بين الحق والباطل ثم تسوق الدروس فيما ينبغى من تجرد المؤمن عن موازين الدنيا وأقيستها إذا وضع أمام اختيار الله تعالى وترتيبه[١].

ولعل دراسة متأنية لسبب النزول السابق ذكره تبين لنا مدى صعوبة الموقف من جهة ووقوف المسلم أمام العقلانية البحتة من ناحية وجوب الخضوع لقوانين الألف والعادة التى تعود عليها الإنسان فى حياته أم أن لله تعالى قوانين أخرى فوق قوانين الأسباب فكانت هنا صعوبة اتخاذ القرار ولذلك جاءت الآيات تقدر هذا الموقف وما جرى فيه بقوله تعالى:

﴿ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾:

فإن الألف والعادة يحتمان على صاحبهما الالتزام بواقع الأمور لا يحيد عنها ومن هنا نشأ هذا الجدال حول إرادة القتال فإن الجميع قد خرجوا والذهن منصرف تماماً إلى غنائم العير فلما بدت احتمالات الحرب بدأ الجدل ولا يضير المسلمين فى شىء أن بعضهم تردد عندما أحس باحتمال القتال وهذه حقيقة ينص عليها القرآن: ﴿ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ لأن الحرب ليست لهواً ولا متعة وإنما هى

---

(١) المفهوم الإسلامى للحرب والسلام للدكتور محمد السيد جبريل.

ضرب وموت. وتلك أول معركة كبرى يخوضها المسلمون ومن الطبيعى أن يكون جدال، وحسم، رسول الله ﷺ ذلك كله بصبره وحكمته كما رأينا فى سبب النزول وكما سنرى بمشيئة الله تعالى من سياق الآيات ونضيف إلى هذا أيضاً أن الجدال الذى تحدث عنه القرآن لا يدل على جبن فى الصحابة وحاشا لله وطمعهم فقط فى النصر السهل فإن دراسة متأنية للمغازى الثمانية الأولى قبل غزوة بدر الكبرى يدل على وجود الاستعداد الذهنى الدائم للقتال ولكن عنصر المفاجأة جعلهم يجادلون بعض الشىء خصوصاً عدم الاستعداد المادى لدرجة أن الخروج للقتال كان اختيارياً ولو كان هناك عزم أكيد على الخروج للقتال لخرج الجميع معدين العدة لذلك وموطدين العزم له(١).

## موجز المغازى قبل غزوة بدر:

١ ـ سرية سيف البحر: قادها حمزة بن عبدالمطلب ووجهتها شاطىء البحر لاعتراض عير مكية فيها ٣٠٠ رجل، ويقود العير أبو جهل، وعدد المسلمين ٣٥ رجلاً (رمضان سنة ١هـ/ مارس ٦٢٣م).

٢ ـ سرية رابغ: قادها عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب بن عبدالمناف لاعتراض عير لقريش يقودها عكرمة بن أبى جهل وفيها مائتا قرشى (شوال سنة ١ هـ/ أبريل ٦٢٣م).

٣ ـ سرية الخرار قادها سعد بن أبى وقاص ومعه عشرون من

---

(١) يقول الواقدى وكان من تخلف لم يلم لأنهم ما خرجوا على قتال وإنما خرجوا للعير، وتخلف قوم من أهل نيات وبصائر لو ظنوا أنه يكون قتال ما تخلفوا، وكان من تخلف أسيد بن حضير فلما قدم رسول الله ﷺ قال له أسيد: الحمد لله الذى سرك وأظهرك على عدوك، والذى بعثك بالحق، ما تخلفت عنك رغبة عن نفسك، ولا ظننت أنك تلاقى عدوك وما ظننت إلا أنها العير فقال له الرسول ﷺ: صدقت.

المسلمين سيراً على الأقدام لاعتراض عير لقريش وخانتهم العير، وأمر الرسول ﷺ ألا تجاوز السرية وادى الخرار ثم تعود (ذو القعدة سنة ١هـ/ مايو ٦٢٣م).

٤ ـ غزوة الأبواء: أرسلت لاعتراض عير لقريش، وقد قادها رسول الله ﷺ ولم يحدد عدد الذين اشتركوا فى الغزوة، وكتب الرسول ﷺ كتاباً لبنى ضمرة لا يغزوهم ولا يغزونه (صفر سنة ٢هـ/ أغسطس سنة ٦٢٣م).

٥ ـ غزوة بواط: وهى جبال من جبال جهينة بناحية رضوى قرب ذى خشب على أربعة برد من المدينة، وكان مع الرسول ﷺ مائتا رجل وحمل لواءه سعد بن أبى وقاص، والهدف اعتراض عير لقريش يقودها أمية بن خلف مع مائة من قريش و٢٥٠٠ بعير (ربيع الأول سنة ٢هـ/ سبتمبر ٦٢٣م).

٦ ـ غزوة بدر الأولى: خرج فيها رسول الله ﷺ فى طلب كرز بن جابر القهرى الذى أغار فى نفر من رجاله على سرح المدينة بالجماء على بعد ٣ أميال شمال شرقى المدينة، فطارده الرسول حتى قرب موقع بدر ولم يدركه فعاد (ربيع الأول سنة ٢ هـ/ سبتمبر ٦٢٣م).

٧ ـ وفى جمادى الأول من السنة نفسها كانت غزوة ذات العشيرة، خرج الرسول ﷺ فيها يعترض عيرات قريش وهى عائدة من الشام، وهى العير التى طلبها فى غزوة بواط ولم يدركها وهى صادرة إلى الشام ولم يدركها الرسول ﷺ ولكنه وادع بنى مدلج وخلفاءهم بنى ضمرة دون أن تقع حرب.

٨ ـ سرية نخلة: وهى نخلة الشامية على أبواب حدود حوزمكة من الشمال وقد قادها عبدالله بن محسن الأسدى، ولم يأمره الرسول بقتال،

وكان معه عكاشة بن محصن وواقد بن عبدالله وعتبة بن غزوان وسعد ابن أبى وقاص، وقد وقع فى هذه السرية قتال برغم أمر الرسول ﷺ لظروف يرجع إليها فى كتب السيرة النبوية. وهناك خلاف فيما إذا كان ذلك القتال قد وقع فى آخر جمادى الأولى والآخرة أو أول رجب سنة ٢ هجرة/ يناير ٦٢٤م)[١].

ثم يبين الله سبحانه وتعالى الحكم فى هذا الجدال وموقفه سبحانه وتعالى ومنه ومن أصحابه بقوله:

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾.

هذه الآيات بيان من الله سبحانه وتعالى بوعده للمؤمنين فقد أقبل أبو سفيان من الشام فى عير لقريش، حتى إذا دنا من بدر، نزل جبريل فأخبر النبى ﷺ بذلك فخرج فى جماعة من أصحابه يريدهم، فبلغهم ذلك فبعثوا عمروا بن ضمضم الغفارى إلى مكة مستغيثاً، فخرجت قريش للمنع عنها، ولحق أبو سفيان بساحل البحر، ففات رسول الله ﷺ، ونزل جبريل بهذه الآية: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ ... ﴾، والمعنى، اذكروا إذ يعدكم الله إحدى الطائفتين والطائفتان: أبو سفيان وما معه من المال، وأبو جهل ومن معه من قريش، فلما سبق أبو سفيان بما معه، كتب إلى قريش: إن كنتم خرجتم لتحرزوا ركائبكم، فقد أحرزتها لكم. فقال أبو جهل: والله لا نرجع، وسار رسول ﷺ يريد القوم، فكره أصحابه ذلك وردوا أن لو نالوا الطائفة التى فيها الغنيمة دون القتال فذلك قوله: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ

(١) دراسات فى السيرة النبوية للدكتور حسين مؤنس ويرجع للموضوع بالتفصيل فى مغازى الواقدى وسيرة بن هشام.

الشَّوْكَةِ﴾ أى: ذات السلاح. يقال: فلان شاكى السلاح، بالتخفيف، وشاك فى السلاح، بالتشديد، وشائك. قال أبو عبيدة: ومجاز الشوكة الحد، يقال: ما أشد شوكة بنى فلان، أى: حدهم. وقال الأخفش: إنما أنت ﴿ ذَاتِ الشَّوْكَةِ﴾ لأنه يعنى الطائفة.

قوله تعالى: ﴿ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَق﴾ فى المراد بالحق قولان:

أحدهما: أنه الإسلام، قاله ابن عباس فى آخرين.

الثانى: إنه القرآن: والمعنى: يحق ما أنزل إليك من القرآن.

قوله تعالى: ﴿ بِكَلِمَاتِهِ﴾ أى : بعداته التى سبتت من اعزاز الدين كقوله ﴿ ليظهره علي الدين كله﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أى: يجتث أصلهم.

قوله تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَ﴾ المعنيك ويريد أن يقطع دابر الكافرين كيما يحق الحق - وفى هذا الحق القولان المتقدمان - فأما الباطل، فهو الشرك، والمجرمون هاهنا: المشركون[1].

لقد أراد الله سبحانه وتعالى بهذا اللقاء نصر دينه وإعلاء كلمته ويرفع راية الإسلام يجعله الدين الغالب على الأديان وهو أعلم بعواقب الأمور فيحسن التدبير لها.

## موقف الإسلام من الجهاد:

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير للإمام ابن الجوزى.

وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾(١).

ويقول عز وجل: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾(٢).

ويقول سبحانه: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٣).

من هذه النصوص القرآنية الكريمة نتبين: أن الجهاد فى الإسلام إنما هو جهاد من أجل فكرة، هذه الفكرة هى: ما عبر عنه سبحانه: بسبيل الله، وسبيل الله هو الخير والعدل والحق، فالقتال فى الإسلام إنما كان من أجل:

١ - أن يكون الدين كله لله.

٢ - وألا تكون فتنة.

٣ - ومن أجل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا حول لهم ولا قوة، الذين ينالون من عسف الطغاة وبغيهم الشر الكثير، فيضرعون إلى الله سبحانه أن ينقذهم من الظلم.

٤ - ثم من أجل هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم ومن أموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله(٤).

---

(١) سورة النساء آية: ٧٥، ٧٦.

(٢) سورة البقرة آية: ١٩٣.

(٣) سورة البقرة آية: ٢٤٤.

(٤) الجهاد فى الإسلام للإمام عبدالحليم محمود.

وفيما يلى بعض الآيات وبعض الأحاديث التى تصور تصويراً واضحاً موقف الإسلام من الجهاد:

يقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ لنبلونكم، حتي نعلم المجاهدين منكم والصابرين، ونبلوا أخباركم ﴾.

---

(١) سورة محمد: ٤ ــ ٦.
(٢) سورة التوبة: ١٤، ١٥.
(٣) سورة التوبة: ١٦.
(٤) سورة آل عمران: ١٤٢.

وقال تعالى: ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾(٤).

أما أحاديث الرسول ﷺ فإنها من الكثرة والاستفاضة بمكان ونذكر منها التالى:

عن أبى ذر، رضى الله عنه، قال: (قلت: يارسول الله، أى الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله والجهاد فى سبيله)(٥).

وعن أبى دارد باسناد صحيح عن أنس رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم)(٦).

---

(١) سورة النساد: ٧٤.
(٢) سورة التوبة: ٤١.
(٣) سورة البقرة: ١٩٠، ١٩١.
(٤) سورة البقرة: ١٩٣.
(٥) رواه البخارى ومسلم.
(٦) أخرجه النسائى.

عن أبى هريرة رضى الله عنه ـ فيما رواه الإمام مسلم ـ قال: قال رسول الله ﷺ: (من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على على شعبة من النفاق).

عن أبى الدرداء رضى الله عنه: أن النبى ﷺ قال: (من اغبرت قدماه ـ فى الجهاد ـ فى سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار)(١).

عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (عينان لا تسمهما النار: عين بكت من خشية الله تعالى: وعين باتت تحرس فى سبيل الله تعالى)(٢).

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: (قيل يارسول الله أى الناس أفضل؟ قال: مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله)(٣).

عن سهل بن سعد الساعدى، رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (رباط يوم فى سبيل الله، خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد ـ فى الجهاد ـ فى سبيل الله والغدوة خير من الدنيا وما عليها)(٤).

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: (مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، بشعب فيه عينية من ماء عذبة، فأعجبته فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب: ولن أفعل استأذن رسول الله ﷺ).

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ، قال: (لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله، أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم،

---

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط.
(٢) أخرجه الترمذى.
(٣) أخرجه البخارى.
(٤) أخرجه الشيخان.

ويدخلكم الجنة؟ اغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة: وجبت له الجنة)[١]. والفواق ما بين الحلبتين.

وعن أبى أمامة رضى الله عنه، أن رجلاً قال: يارسول الله ائذن لى فى السياحة فقال النبى ﷺ: (سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله عزوجل)[٢].

عن أبى أمامة رضى الله عنه، أن النبى ﷺ، قال: (من لم يغز، ولم يجهز غازياً، أو يخلف غازياً فى أهله بخير، أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة)[٣].

عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (وإذا اتركتم الجهاد سلط عليكم ذلا، لا ينزعه عنكم، حتى ترجعوا إلى دينكم)[٤].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لغدوة أو روحة فى سبيل الله - خير من الدنيا وما فيها)[٥].

عن جابر بن عبدالله قال: لما قتل عبدالله بن حرام، يوم أحد قال رسول الله ﷺ لابنه جابر: (يا جابر ألا أخبرك ما قال الله عز وجل لأبيك؟ قلت: بلى. قال: ما كلم أحداً إلا من وراء حجاب، وكلم أباك كفاحاً.

---

(١) رواه الترمذى.
(٢) رواه أبو داود.
(٣) أخرجه أبو داود.
(٤) أخرجه أبو داود.
(٥) أخرجه البخارى.

فقال: ياعبد تمن على أعطك.

قال: يارب تحيينى فأقتل فيك ثانية.

قال: إنه سبق منى أنهم إليها لا يرجعون.

قال: يارب فأبلغ من ورائى. فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾(١).

## فى القادر على الجهاد المتخلف عنه:

إذا تخلف شخص عن أداء واجبه بالنسبة للجهاد، فقد خرج على المبدأ الإسلامى الإلهى، فقد أمر الله بالجهاد، وحذر من التخلف، ولقد قال الله تعالى فى من تثاقل عن الجهاد: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢).

ويبين الله تعالى: أن هؤلاء الذين يتأخرون عن القتال لا إيمان لهم بالله ولا باليوم الآخر فيقول سبحانه: ﴿ لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾(٣).

---

(١) أخرجه البخارى.

(٢) سورة التوبة: ٣٨، ٣٩.

(٣) سورة التوبة: ٤٤، ٤٥.

وهذا الذى يتخلف إنما يتخلف معتقداً أنه بذلك يبتعد عن مظان القتل، مع أن الآجال محدودة ومقدرة.

وهذا سيدنا خالد بن الوليد، رضى الله عنه، حينما أوشك على الموت، كان جسمه كله ضربات بسيوف، أو طعنات بخناجر، ثم هو يموت على فراشه آسفاً لأنه كان يتمنى أن يموت فى ساحة الحرب شهيداً. فالجبن لا يطيل الأجل، ولا نامت أعين الجبناء، والشجاعة لا تقصر الآجال، والله يجزى الشجعان عن الإنسانية وعن الدين كل خير.

أما هؤلاء الذين قالوا: (لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا).

فإن الله سبحانه وتعالى يرد عليهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾[١].

وهؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: (لو أطاعونا ما قتلوا).

فإن الله سبحانه وتعالى، يأمر رسول الله ﷺ بأن يرد عليهم قائلاً: ﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٢].

أما الذين يفرون أمام أعداء الله، فهؤلاء: ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾[٣].

إذن المؤمن الصادق الإيمان، لا يعرف الجبن، ولا يستزله الشيطان موسوساً له بالخوف من غير الله تعالى[٤].

---

(١) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٢) سورة آل عمران: ١٦٨.

(٣) سورة آل عمران: ١٥٥.

(٤) الجهاد فى الإسلام للإمام عبدالحليم محمود.

## رعاية الله للمؤمنين:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ⑨ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

## معانى المفردات:

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ ﴾ أى بدل من إذ يعدكم: وقيل يتعلق بقوله: ليحق الحق أو بفعل مضمر واستقائتهم دعاؤهم بالغوث والنصر.

﴿ مُمِدُّكُم ﴾ : أى مكثركم.

﴿ مُرْدِفِينَ ﴾ : من قولك ردفه إذا اتبعه، وأردفته إياه إذا اتبعته إياه والمعنى يتبع بعضهم بعضاً(١).

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ ﴾ الضمير عائد على الإمداد بالملائكة. أى وما جعل الله بعث الملائكة وأخباره إياكم بذلك إلا بشرى.

﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ﴾ وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله أى بدون ذلك(٢).

## مناسبة الآيات لما قبلها:

فى الآيات السابقة كان هناك نوع من الحوار بين الرسول ﷺ وبين صحابته رضوان الله عليهم وما كان لصحابة رسول الله ﷺ أن يرفضوا له أمراً ولكنها طبيعة الحاكم الذى يؤسس دولة ويبنى أمة هى (خير أمة أخرجت للناس) ومن وضع عنصر المشاورة والحوار بين الحاكم وأمته

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى.
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

موضع التطبيق حتى فى أدق الظروف ثم بعد ذلك حسم الله سبحانه وتعالى هذا الحوار بتوجيه المسلمين إلى الجهاد فى غزوة بدر، هذا الحسم من الله سبحانه وتعالى جعل المسلمين يتضرعون إليه بالدعاء والرجاء بنصرتهم على أعداء دينه من الكفار فاستجاب الله سبحانه وتعالى لهذا الدعاء بل أمدهم بالملائكة وجعلهم من أعوانهم فى القتال بشرى لهم ولتطمئن به قلوبهم ولبيان أن النصر من لدن الله العزيز الحكيم.

**سبب النزول:**

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قراد، حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفى أبو زيل، حدثنى ابن عباس حدثنى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما كان يوم بدر، نظر النبى ﷺ إلى أصحابه وهم ثلثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبى ﷺ القبلة وعليه رداؤه وازاره، ثم قال: (اللهم أنجز لى ما وعدتنى، اللهم أن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبداً) قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر فأخذ رداء فرداه ثم التزمه من ورائه ثم قال: يانبى الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ... إلخ ﴾[١].

**المعنى التفصيلى العام:**

حدد الله سبحانه وتعالى أول معالم النصر فى غزوة بدر للمسلمين، لقد استغاث به رسول الله ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم تبعاً لإمامهم

---

(١) رواه مسلم وابن كثير وفى رواية مسلم (ثلثمائة وتسعة عشر بالنسبة لعدد المسلمين فى موقعة بدر).

والاستغاثة طلب الغوث والنصر وفى قول ثان بمعنى تستجيرون ويمكن أن يشمل المعنى الجميع فإن الاستغاثة كانت لطلب النجاة والفوز والانتصار.

وكانت نتيجة هذه الاستغاثة بالله تعالى استجابته سبحانه وتعالى بإمداد الرسول ﷺ وجنوده ﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾.

وقوله ﴿ بِأَلْفٍ ﴾ قرأ الضحاك، وأبو رجاء: (بآلاف) بهمزة ممدودة وبألف على الجمع، وقرأ أبو العالية، وأبو المتوكل: (بألوف) برفع الهمزة واللام بواو بعدها على الجمع.

أما قوله ﴿ مُرْدَفِين ﴾ فقرأ ابن كثير وأبو عمر، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائى: ﴿ مُرْدِفِين ﴾ بكسر الدال قال ابن عباس وقتادة والضحاك وابن زيد، والفراء، هم المتتابعون[١].

ويحتمل أن المراد ﴿ مُرْدِفِين ﴾ لكن أى نجدة لكم بمعنى المدد كما تقول أنت لرجل زده كذا وكذا وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارىء وابن زيد ﴿ مُرْدِفِين ﴾ ممدين.

وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس (يمددكم ربكم بألف من الملائكة مردفين) قال: وراء كل ملك ملك. وفى رواية بهذا الإسناد (مردفين) قال بعضهم على أثر بعض[٢].

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى ﴾ كلام مستأنف لبيان أن المؤثر الحقيقى هو الله تعالى ليثق به المؤمنون ولا يقنطوا من النصر عند فقدان أسبابه فهذه بشارة لكم بأنكم تنصرون.

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير.

﴿ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُم ﴾ أى بالامـداد وتسكن إليـه نفوسكم وتزول عنكم الوسوسة.

﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾: أى وما النصر بالملائكة وغيرهم من الأسباب إلا كائن من عنده عز وجل فالمنصور هو من نصره الله سبحانه والأسباب ليست بمستقلة، أو المعنى لا تحسبوا النصر من الملائكة عليهم السلام فإن الناصر هو الله تعالى لكم وللملائكة.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ : لا يغالب فى حكمه ولا ينازع فى أقضيته.

﴿ حَكِيمٌ ﴾ : يفعل كل ما فعل حسبما تقتضيه الحكمة الباهرة، والجملة تعليل لما قبلها، وفيها إشعار بأن النصر الواقع على الوجه المذكور من مقتضيات الحكم البالغة(١).

## فى قضية شهود الملائكة بدرا:

اتفق العلماء على وقوع شهود الملائكة بدرا، أما وجه الاختلاف فيكمن حول اشتراكهم فى القتال أم عدم اشتراكهم فيه والذين يقولون بالرأى الثانى يرون أن مهمة الملائكة كانت فقط للتأييد والتثبيت واستندوا فى ذلك على قول الله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

وقول الله تعالى فى سورة آل عمران: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾.

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للإمام الألوسى.

يقول الإمام الألوسى فى تفسيره لآية سورة الأنفال: وفى الآية إشعار بأن الملائكة لم يباشروا قتالاً وهو مذهب لبعضهم)[١].

ولكننا فى نفس الوقت نجد أن الجمهور من العلماء يرجح اشتراك الملائكة كمقاتلين على الحقيقة وليس لمجرد التأييد والتثبيت ونحن نشاركهم هذا الرأى حيث أن أدلة الجمهور تثبت ذلك إثباتاً واضحاً ولم يكن الله تعالى ليبعث الملائكة لمجرد الشهود فقط دون الاشتراك، ودليل القرآن على ذلك قول الله تعالى فى سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وعند تفسيرنا للإثبات سنجد أن الخطاب فى قوله تعالى ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ للملائكة.

**دليل السنة:**

روى البخارى فى باب شهود الملائكة بدراً بسنده عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم، قال: من أفضل المسلمين أو كلمة نحوها، قال: كذلك من شهد بدراً من الملائكة).

وروى مسلم وغيره بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: (بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربه بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه، وشق وجهه

---

(١) روح المعانى للإمام الألوسى.

كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصارى فحدث بذلك رسول الله ﷺ فقال (صدقت ذاك من مدد السماء الثالثة).

وروى البيهقى بسنده عن أبى أمامة بن سهل عن أبيه قال: يا بنى لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير إلى رأس المشرك فيقع رأسه عن جسده، قبل أن يصل إليه السيف[١].

وقال ابن اسحاق: حدثنى والدى قال: حدثنى رجال من بنى مازن عن أبى واقد الليثى قال: إنى لأتبع رجلاً من المشركين لأضر به فوقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفى، فعرفت أن غيرى قد قتله.

وعن الربيع بن أنس قال: كان الناس يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم بضرب الأعناق، وعلى البنان مثل سمة النار، وقد أحرق به[٢].

**عون الله تعالى لعباده المؤمنين فى غزوة بدر:**

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾ إذ بدل من إذ يعدكم منصوب بالنصر، أو

(١) البداية والنهاية لابن كثير وانظر السيرة النبوية لابن هشام.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير.

بما عند الله من معنى النصر، أو بإضمار فعل تقدير (اذكر)، وقرىء (يغشاكم) بضم الياء والتخفيف فهو من أغشى، ومن قرأ بالضم والتشديد فهو من غشى المشدد، وكلاهما يتعدى إلى مفعولين فنصب النعاس على أنه المفعول الثانى، والمعنى يغطيكم به فهو استعارة، ومن الغشاء، ومن قرأ بفتح الياء والشين فهو من (غشى) المتعدى إلى واحد أى ينزل عليكم النعاس.

﴿ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ أى أمنا والضمير المجرور يعود على الله تعالى وانتصاب أمنة على أنه مفعول من أجله.

﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ تعديد لنعمة أخرى وذلك أنهم عدموا الماء فى غزوة بدر قبل وصولهم إلى بدر، وقيل بعد وصولهم، فأنزل الله لهم المطر حتى سالت الأودية.

﴿ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ ﴾ كان منهم من أصابته جنابة فتطهر بماء المطر وتوضأ به سائرهم، وكانوا قبله ليس عندهم ماء للطهر ولا للوضوء.

﴿ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ ﴾ كان الشيطان قد ألقى فى نفوس بعضهم وسوسة بسبب عدم الماء، فقالوا نحن أولياء الله وفينا رسوله فكيف نبقى بلا ماء، فأنزل الله المطر وأزال عنهم وسوسة الشيطان.

﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أى يثبتها بزوال ما وسوس لها الشيطان وبتنشيطها وإزالة الكسل.

﴿ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ الضمير فى به عائد على الماء، وذلك أنهم كانوا فى رملة دهسة لا يثبت فيها قدم، فلما نزل المطر تلبدت واندقت الطريق، وسهل المشى عليها والوقوف، وروى أن ذلك المطر بعينه صعب الطريق على المشركين فتبين أن ذلك من لطف الله.

﴿ إِذْ يُوحِي ﴾ يحتمل أن يكون ذلك بدلاً من إذ المتقدمة كما أنها بدل من التى قبلها، أو يكون العامل فيه يثبت.

﴿ أَنِّي مَعَكُمْ ﴾ بالعون والنصرة.

﴿ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يحتمل أن يكون التثبيت بقتال الملائكة مع المؤمنين، أو بشروهم بالنصر، فكان الملك يسير أمام الصف فى صورة الرجل، ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم، قاله مقاتل، أو ثبتوهم بأشياء تلقونها فى قلوبهم تقوى بها على القتال.

﴿ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ يحتمل أن يكون من خطاب الله للملائكة فى شأن غزوة بدر تكميلاً لتثبيت المؤمنين، أو استئناف اخبار عما يفعله الله فى المستقبل.

﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ ﴾ يحتمل أيضاً أن يكون خطاباً للملائكة أو للمؤمنين، ومعنى ﴿ فَوْقَ الأَعْنَاقِ ﴾ أى على الأعناق حيث المفصل بين الرأس والعنق لأنه مذبح، والضرب فيها يطير الرأس وقيل المراد الرءوس، لأنها فوق الأعناق، وقيل المراد الأعناق وفوق زائدة.

﴿ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ قيل هى المفاصل، وقيل الأصابع وهو الأشهر فى اللغة، وفائدة ذلك أن المقاتل إذا ضربت أصابعه تعطل عن القتال فأمكن أسره وقتله.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ذلك للإشارة إلى الضرب، و﴿ شَاقُّوا ﴾ بمعنى: جانبوا، فصاروا فى شق غير شق المؤمنين.

﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ الخطاب هنا للكفار، وذلكم مرفوع تقديره ذلكم العقاب أو العذاب، ويحتمل أن يكون منصوباً بقوله: فذوقوه، كقولك زيداً فاضربه.

﴿ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ عطف على ذلكم على تقدير رفعه أو نصبه، أو مفعول معه، والواو بمعنى مع[1].

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

هذه الآيات فى مجال الحديث عن رعاية الله سبحانه وتعالى للمؤمنين وبيان تعدد نعمه عليهم حيث أنهم لم يفعلوا كما فعل أصحاب موسى عليه السلام من تهاون فى مناصرته بل أنهم ساروا مع رسول اللهﷺ ومضوا لما أمرهم به من قتال فكانت هذه الآيات بيان من الله سبحانه وتعالى مفصل لعونه بعد مدهم بالملائكة ولبيان أن النصر من عند الله إن الله عزيز حكيم.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

هذه الآيات فى مجال ذكر نعم الله سبحانه وتعالى على المسلمين فى هذه المعركة فقد أنزل سبحانه وتعالى نوع من السكينة والطمأنينة النفسية على المسلمين تمثلت فى المظاهر التالية:

أولاً: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ ﴾ فجعل تعالى النعاس غاشياً عليهم ومحيطاً بهم، والنعاس هو النوم بدون الثقل المعتاد ولكنه نوم يلازمه نوع من السكينة والهدوء النفسى وكان هذا من الله سبحانه وتعالى ﴿ أَمَنَةً ﴾ منه فإن النعاس هو حالة الآمن لا يخاف وقد كان ذلك فى الليلة التى كان القتال فى غدها فكان النوم عجيباً مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم.

وعن على رضى الله عنه قال: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة يصلى ويبكى حتى أصبح، ذكره البيهقى والماوردى.

وفى امتنان الله عليهم بالنوم فى هذه الليلة وجهان:

أحدهما: أن قواهم بالاستراحة على القتال من الغد.

الثانى: أن أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم، كما يقال: (الأمن منيم)، و(الخوف مسهر)[١].

ثانياً: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال:

نزل النبى ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء رملة دعصة، وأصاب المسلمين ضعف شديد وألقى الشيطان فى قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون مجنبين فأمطر الله عليهم مطراً شديداً فشرب المسلمون وتطهروا واذهب الله عنهم رجز الشيطان وثبت الرمل حين أصابه المطر ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم، والمؤمنين بألف من الملائكة فكان جبريل فى خمسمائة مجنبة، وميكائيل فى خمسمائة مجنبة، وكذا قال العونى عن ابن عباس وقد روى عن سعيد بن المسيب والشعبى والزهرى وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم أنه طش أصابهم يوم بدر[٢].

ولكن يثور بنا تساؤل هنا : كيف لم يجد المسلمون الماء مع ان عندنا عدة روايات تؤكد أن المسلمين هم الذين كانوا عند الماء ؟

---

(١) تفسير القرطبى.

(٢) تفسير ابن كثير.

يقول ابن إسحاق: (ومضت قريش حتى نزلت بالعدوة القصوى من الوادى خلف العقنقل وبطن الوادى وهو بليل بين بدر وبين العقنقل الكثيب الذى خلفه قريش والقلب ببدر فى العدوة الدنيا من بطن بليل إلى المدينة وبعث الله السماء، وكان الوادى ـ دهما لينا سهلاً ليس برمل ولا تراب ـ فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير وأصاب قريش منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، فخرج رسول الله ﷺ يبادرهم إلى الماء حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به[1].

وقد اعتبر ابن كثير هذه الرواية هى أحسن ما فى هذا ونرى معه هذا الرأى حيث أن السياق بذلك يسير على الوجه السليم فى تسلسل الحادثة وبيان أن هذه الأحوال كانت قبل وصولهم إلى بدر وخصوصاً أن الأمر يتأكد لنا أكثر إذا تابعنا رواية ابن إسحاق فى قوله:

(فحدثت عن رجال من بنى سلمة أنهم ذكروا: أن الحباب بن المنذر ابن عمرو بن الجموح قال: يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟

قال: بل هو الرأى والحرب والمكيدة.

فقال: يارسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم، فننزله ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبنى عليه حوضاً فنملأه ماء، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

---

(١) سيرة ابن هشام.

فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأى.

فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقلب فغورت، وبنى حوضاً على القلب الذى نزل عليه فملئ ماء، ثم قذفوا فيه الآنية[١].

لقد كان نزول الماء بشرى لهم وتطهير من حدث أكبر أو أصغر وهذا تطهير الظاهر على حد تعبير الإمام ابن كثير وذهاب لرجز الشيطان من الوسوسة والخواطر السيئة الانهزامية وهذا تطهير للباطن ﴿ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ ﴾ أى بالصبر والشجاعة على قتال الأعداء ومجالدتهم وهذا مع تثبيت الأقدام بالرأى والفكر والمكيدة والصواب فى اتخاذ القرار ويصل الأمر إلى التثبيت فى الصورة الظاهرة بمعنى القدرة على القتال بسهولة ويسر.

ثالثاً: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ هذه هى النعمة الثالثة التى أعطاها الله تعالى للمسلمين فى موقعة بدر الكبرى والتى نحن الآن فى مجال تفسير ذكرها من الله سبحانه وتعالى ويقول الإمام ابن كثير فى ذلك:

وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها وهو أنه تعالى وتقدس وتبارك وتمجد أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين يوحى إليهم فيما بينه وبينهم أن يثبتوا الذين آمنوا قال ابن إسحاق: آزروهم وقال غيره: قاتلوا معهم، وقيل: كثروا سوادهم،

---

(١) سيرة ابن هشام.

وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتى الرجل من أصحاب النبى ﷺ فيقول سمعت هؤلاء القوم يعنى المشركين يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن فيحدث المسلمون بعضهم بعضاً بذلك فتقوى أنفسهم حكاه ابن جرير وهذا لفظه بحروفه[١].

ويترتب على هذا التثبيت للمؤمنين إلقاء الرعب فى نفوس المشركين من الله سبحانه وتعالى لأنهم خالفوا أمره وكذبوا رسوله ﷺ ثم يأتى الأمر الإلهى للملائكة بالقتال ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ﴾ أى اضربوا الأعناق و(فوق) زائدة، قاله الأخفش والضحاك وعطية. وقد روى المسعودى قال: قال رسول الله ﷺ: (إنى لم أبعث لأعذب بعذاب الله وإنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق).

وقال محمد بن يزيد: هذا خطأ، لأن (فوق) تفيد معنى فلا يجوز زيادتها، ولكن المعنى أنهم أبيح لهم ضرب الوجوه وما قرب منها.

وقال ابن عباس: كل هام وجمجمة.

وقيل: أى ما فوق الأعناق وهو الرءوس، قال عكرمة.

والضرب على الرأس أبلغ، لأن أدني شىء يؤثر فى الدماغ[٢].

ثم يأتى الأمر الثانى للملائكة من الله تعالى ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال الزجاج: واحد البنان بنانة، وهى هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء، والبنان مشتق من قولهم: ابن الرجل بالمكان إذا أقام به، فالبنان يحتمل به ما يكون للإقامة والحياة وقيل المراد بالبنان هنا أطراف

---

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) تقسير القرطبى.

الأصابع من اليدين والرجلين، وهو عبارة عن الثبات فى الحرب وموضع الضرب، فإذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء.

قال عنترة

**وكان فتى الهيجاء يحمى ذمارها**

**ويضرب عند الكرب كل بنان**

ومما جاء أن البنان الأصابع قول عنتر أيضاً:

**وأن الموت طوع يدى إذا ما**

**وصلت بنانها بالهندوانى**

وهو كثير فى أشعار العرب، البنان الأصابع، قال ابن فارس: البنان الأصابع، ويقال الأطراف.

وذكر بعضهم أنها سميت بناناً لأن بها صلاح الأحوال التى بها يستقر الإنسان وبين. وقال الضحاك: البنان كل مفصل[١].

ثم ينتقل الله سبحانه وتعالى من مجال تعديد النعم على المسلمين إلى بيان التعليل الذى جعله سبحانه وتعالى يتولى المسلمين بهذا الإنعام ويحارب الكافرين ويخزهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى خالفوهما فساروا فى شق، وتركوا الشرع والإيمان به واتباعه فى شق مأخوذ من شق العصا وهو جعلها فرقتين[٢].

(١) المرجع السابق.
(٢) تفسير ابن كثير.

والإشارة فى ﴿ ذَلِكَ ﴾ إلى الضرب والأمر به أو إلى جميع ما مر والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من ذكر قبل من الملائكة والمؤمنين على البدل أو لكل أحد ممن يليق بالخطاب، وجوز أن يكون خطاباً للجمع، والكاف تفرد مع تعدد من خوطب بها، وليست كالضمير على ما صرحوا به، ومحل الاسم الرفع على الابتداء وخبره قوله سبحانه وتعالى: ﴿ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[1].

﴿ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أى يخالف أوامرهما ويبعد عما جاء فى شريعة الإسلام والإظهار فى مقام الاضمار لتربية المهابة وإظهار بشاعة ما اجترأوا عليه وتوضيح علية الحكم.

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ وهذا العقاب الشديد لهم فى الدنيا والآخرة وينطبق أيضاً على كل من يشاقق الله ورسوله كائناً من كان ولعل دراسة متأنية للسيرة النبوية تظهر لنا مدى العقاب الذى لاقاه من شاق والله تعالى ورسوله ﷺ ثم يشير الله سبحانه وتعالى بعد ذلك إلى الوعيد أيضاً بعذاب الآخرة بعد وقوع عذاب الدنيا الذى وقع لهم يوم بدر بقوله تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾.

## إرادة القتال والجهاد فى سبيل الله:

يقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ (١٥) وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

---

(١) تفسير الألوسى.

**معانى المفردات:**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الخطاب للمؤمنين فى كل زمان ومكان بالإضافة لمعركة بدر.

﴿ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا ﴾ الزحف هو سعى كل من الجيشين للقاء الآخر فى المعركة ويسير كالدبيب ويقول فى ذلك الأزهرى:

(واصل الزحف للصبى، وهو أن يزحف على استه قبل أن يقوم وإذا فعل ذلك على بطنه قيل: قد حبا، وشبه بزحف الصبيان مشى الفئتين تلتقيان للقتال، فيمشى كل فيه رويداً إلى الفئة الأخرى قبل التدانى للضراب)[1].

يقول الإمام الألوسي: الزحف كما قال الراغب انبعاث مع جر الرجل كانبعاث الصبى قبل أن يمشي والبعير المعيى والعسكر إذا كثر فتعثر انبعاثه.

وقال غير واحد: هو الدبيب يقال: زحف الصبى إذا دب على استه قليلاً قليلاً ثم سمى به الجيش الدهم المتوجه إلى العدو لأنه لكثرته تكاثفه يرى كأنه يزحف لأن الكل يرى كجسم واحد متصل فتحس حركته بالقياس فى غاية البطء وإن كانت فى نفس الأمر فى غاية السرعة.

﴿ فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴾ أى الانهزام أمامهم فإن المنهزم يولى ظهره من انهزم منه وعدل عن لفظ الظهور إلى الأدبار تقبيحاً لفعل المنهزم.

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ﴾ عند اللقاء فضلاً عن الفرار.

﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ أى لإرادة العودة للقتال مرة أخرى من موقع أصلح للقتال منه أو لهدف قتالى أهم من هؤلاء.

---

(١) لسان العرب.

﴿أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أى منحازاً إلى طائفة من جيشه ليقاتل معهم العدو.

﴿فَقَدْ بَاءَ﴾ : رجع.

﴿بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أى غضب عظيم.

﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بيان للعذاب الذى سيلاقيه بالإضافة لغضب الله تعالى.

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

فى الآيات السابقة رأينا مبلغ رعاية الله سبحانه وتعالى للمؤمنين الذين يتبعون الرسول ﷺ ويسيرون على هدى الإسلام ففى المواقف الحرجة كما نرى فى غزوة بدر حتى قال الله فيهم ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة﴾ نجد دائماً نصر الله ولكن ليس معنى هذا أن الرعاية الإلهية فى معونتها تترك البشر دون دور تكليفى يقومون به وإلا لما كان قول الله تعالى: ﴿وليتخذ منكم شهداء﴾ ومن هنا يظهر لنا بوضوح مدى المناسبة بين الآيات فلابد للسعى البشرى والفعل البشرى والجهاد فى سبيل الله إلى جانب عون الله ونصرته لعباده المؤمنين.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

هذه الآيات تعبير من الله تعالى عن الموقف الذى يجب أن يتخذه المسلم فى المعركة من إقرار الحق وازهاق الباطل والمؤمن الذى يدافع عن الحق ليس بالجبان والشجاعة لا تنقص عمراً ولا تضيع رزقاً.

**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾: أى إذا تقاربتم من العدو ودنوتم فلا تفروا وتتركوا أصحابكم وقضية الحق التى تقاتلون من أجلها وهذا النهى من الله تعالى عن الفرار**

**من الزحف تأتى وجه أهميته من أنه كما يقول بحق الإمام عبدالحليم محمود تحت عنوان (حتى لا يكون المسلم جبانا):**

إن الإنسانية الساذجة ـ منذ أن وجدت الإنسانية ـ تخاف الموت وتخشاه، خشية لا تكاد تعادلها خشية.

وكان لذلك نتائج سلوكية كثيرة من هذه النتائج: الجبن.

وقد أحب الله سبحانه وتعالى، ألا تقع الأمة الإسلامية، فيما يقع فيه غيرها من الجبن خشية الموت، فبين سبحانه الأمر فى القرآن، وبينه رسول الله ﷺ، فى السنة بياناً لا لبس فيه، إن مالك الملك، إنما هو وحده الذى يملك الموت والحياة:

إنه يملك اماتة الطغاة أو تركهم، لحكمة يعلمها، سبحانه، وهو الذى قرر الآجال وحددها، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، والحرص على الحياة أو الجبن، ليست من أسباب اطالة الأجل والشجاعة والإقدام ليسا من أسباب تقصير الأجل، وقد بين الله ذلك فى كتابه الكريم، ابانة تامة، وكما أنه لكل أجل كتاب فإنه لكل أمة أجل.

أما هؤلاء الذين قال: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هناهنا).

فإن الله سبحانه يرد عليهم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾(١).

وهؤلاء الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا: ﴿لو اطاعونا ما قتلوا﴾.

فإن الله سبحانه وتعالى يأمر رسوله ﷺ، بأن يرد عليهم قائلاً:
﴿فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٥٤.
(٢) سورة آل عمران آية: ١٦٨.

أما الذين يفرون أمام أعداء الله، فهؤلاء:

﴿ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ﴾(١).

إذن المؤمن الصادق الإيمان، لا يعرف الجبن، ولا يستزله الشيطان موسوساً بالخوف من غير الله تعالى.

٢ - وحتى لا يكون المسلم جباناً:

وإذا كان خوف الموت هو السبب الأول فى الجبن، فإن السبب الثانى ما يوسوسه الشيطان للإنسان من جانب الرزق، وكيف يتوافر للأولاد والذرية من بنين وبنات وزوجة إذا ذهب للحرب، وإذا قدر له الشهادة فيها.

وكما استفاض الله ورسوله، فى البيان عن تحديد الآجال، فقد استفاض الله ورسوله فى بيان أن الرزق مقسوم.

وكما حرر الإسلام المجتمع الإسلامى من خوف الموت، فقد حرره أيضاً من هم الرزق، بالنسبة للإنسان نفسه الذى يكفل أسرة وبالنسبة للأسرة نفسها فرداً فرداً، يستوى ذلك حالة السلم وحالة الحرب: ذلك أن الرزق بيد الله:

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾(٢).

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(٣).

---

(١) سورة آل عمران آية: ١٥٥.

(٢) سورة هود آية: ٦.

(٣) سرورة فاطر آية: ٢.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى: أن الرزق فى السماء محدد مقسوم، وأقسم سبحانه على أن ذلك حق واقع، لقد أقسم سبحانه لما يعلمه من ضعف الطبيعة البشرية واشفاقها وقلقها بالنسبة لأمر الرزق، يقول سبحانه:

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾(١).

على أن صاحب الثراء العريض، الذى يعتمد على ثرائه، غير ناظر إلى الله تعالى، واهب الرزق والثراء، قد يخسف الله به وبداره الأرض كما صنع بقارون.

أو يطوف ببساتينه ومزارعه طائف منه سبحانه، فتصبح خاوية على عروشها، كما فعل سبحانه بأصحاب الجنة التى قص علينا أمرهم فى القرآن الكريم فى سورة القلم.

وما من شك فى أن السعى على الرزق مطلوب، وأن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا السعى على الرزق، وأن العمل الجاد الكادح، إنما هو من سمات الإسلام: كل ذلك حق وإذا كان الرزق بيد الله: وإذا كان العمل مطلوباً، فإن ما ينهى عنه الإسلام، إنما هو هذه الصورة الجشعة القلقة التى تحاول اقتناص المال من السبل غير المشروعة، أو التى ترى أن عبداً م عباد الله بيده الرزق إعطاءاً ومنعاً، وبيده الرزق زيادة ونقصاً، أو أخذاً أو تركاً.

وقد حرر الإسلام بموقفه هذا المجتمع الإسلامى من أن يكون هم الرزق سبباً فى ضعفه أو ذلته.

---

(١) سورة الذاريات آية: ٢٢، ٢٣.

## فى معنى التولى يوم الزحف:

وتتابع السورة الكريمة الحدث عن موقف الإسلام من التولى يوم الزحف يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾.

والخطاب فى هذه الآية أيضاً موجه إلى المؤمنين ولكن اختلف العلماء فى هل هذا الخطاب خاص بمؤمنى بدر أم أن الآية على اطلاقها:

روى عن أبى سعيد الخدرى، أن ذلك مخصوص بيوم بدر وبه قال نافع والحسن وقتادة ويزيد بن أبى حبيب والضحاك وبه قال أبو حنيفة. وأن ذلك خاص بأهل بدر فلم يكن لهم أن ينحازوا، ولو انحازوا لانحازو؟ للمشركين، ولم يكن فى الأرض يومئذ مسلمون غيرهم، ولا للمسلمين فئة إلا النبى ﷺ، فأما بعد ذلك فإن بعضهم فئة لبعض. قال الكيا: وهذا فيه نظر، لأنه إذا كان بالمدينة خلق كثير من الأنصار لم يأمرهم النبىﷺ بالخروج ولم يكونوا يرون أنه قتال، وإنما ظنوا أنها العير، فخرج رسول الله ﷺ فيمن خف معه.

ويروى عن ابن عباس وسائر العلماء أن الآية باقية إلى يوم القيامة.

احتج الأولون بما ذكرنا، وبقوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ فقالوا: هو إشارة إلى يوم بدر، وأنه نسخ حكم الآية بالضعف، وبقى حكم الفرار من الزحف ليس بكبيرة، وقد فر الناس يوم أحد فعفا الله عنهم، وقال الله فيهم يوم حنين ﴿ ثم وليتم مدبرين ﴾ ولم يقع على ذلك تعنيف. وقال الجمهور من العلماء: إنما ذلك إشارة إلى يوم الزحف الذى يتضمنه قوله تعالى: ﴿ إذا لقيتم ﴾. وحكم الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضعف الذى بينه الله تعالى فى آية أخرى، وليس فى الآية نسخ. والدليل عليه أن الآية

نزلت بعد القتال وانقضاء الحرب وذهاب اليوم بما فيه. وإلى هذا ذهب مالك والشافعى وأكثر العلماء. وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات - وفيه - والتوالى يوم الزحف) وهذا نص فى المسألة، وأما يوم أحد فإنما فر الناس من أكثر من ضعفهم ومع ذلك عنفوا. وأما يوم حنين فكذلك من فر إنما انكشف عن الكثرة[١].

**فى معنى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾:**

التحرف: الزوال عن جهة الاستواء، فالمنحرف من جانب إلى جانب لمكان الحرب غير منهزم، وكذلك المتحيز إذانوى التحيز إلى فئة من المسلمين ليستعين بهم فيرجع إلى القتال غير منهزم أيضاً[٢].

عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه كان فى سرية من سرايا رسول الله ﷺ قال فحاص[٣] الناس حيصة فكنت فيمن حاص، قال: فلما برزنا قلنا كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب. فقلنا: ندخل المدينة فنتنبت فيها ونذهب لا يرانا أحد.

قال: فدخلنا فقلنا لو عرضنا أنفسنا على رسول الله ﷺ، فإن كانت لنا توبة أقمنا، وإن كان غير ذلك ذهبنا. قال: فجلسنا لرسول الله ﷺ قبل صلاة الفجر، فلما خرج قمنا إليه فقلنا: نحن الفرارون، فأقبل إلينا فقال: (لا بل أنتم العكارون) قال: فدنونا فقبلنا يده. فقال: (أنا فئة كل مسلم)[٤].

يقول الإمام ابن كثير: وكذلك قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه

---

(١) تفسير القرطبى.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أى جالوا يطلبون الفرار.

(٤) رواه أبو داود ومعنى العكارون: العطافون.

فى أبى عبيدة لما قتل على الجسر بأرض فارس لكثرة الجيش من ناحية المجوس فقال عمر لو تحيز إلى لكنت له فئة، هكذا رواه محمد بن سيرين عن عمر، وفى رواية أبى عثمان النهدى عن عمر قال: لما قتل أبو عبيدة قال عمر: يا أيها الناس أنا فئتكم، وقال مجاهد قال عمر: أنا فئة كل مسلم(١).

أما أن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب فإنه حرام ويدخل فى باب الكبائر لما رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اجتنبوا السبع الموبقات) قيل: يارسول الله وما هن؟ قال: (الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات).

**ثم يعقب الله تعالى ببيان عذاب المتولى يوم الزحف:**

﴿ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾:

أى رجع ﴿ بِغَضَبٍ ﴾ عظيم لا يقادر قدره وحاصله المولون إلا المتحرفين والمتحيزين لهم ما ذكر، و﴿ مِّنَ اللَّهِ ﴾ صفة غضب مؤكدة لفخامته أى بغضب كائن منه تعالى شأنه ﴿ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ﴾ أى يبدل ما أراد بفراره أى يأى إليه من مأوى ينجيه من القتل ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ جهنم ولا يخفى ما فى ايقاع البوء فى موقع جواب الشرط الذى هو التولية مقروناً بذكر المأوى والمصير من الجزالة التى لا مزيد عليها(٢).

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) تفسير الألوسى.

**وما النصر إلا من عند الله:**

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ﴾: أى لم يكن قتلهم فى قدرتكم لأنهم أكثر منكم وأقوى ولكن الله قتلهم بتأييدكم عليهم وبالملائكة والخطاب هنا للمؤمنين[1].

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾: خطاب لنبيه عليه الصلاة والسلام بعد سبق توجيه الخطاب للمؤمنين وذلك لينفى عن الجميع أن إرادتهم هى المحركة للفعل وبيان أن إرادة الله سبحانه وتعالى وقدرته هى التى نصرتهم على أعدائهم وفى المقصود بالرمى معانى سنذكرها عند حديثنا عن سبب النزول.

﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ﴾ أى: لينعم عليهم نعمة عظيمة بالنصر والأجر.

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لدعائهم واستعانتهم.

﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم المؤدية لهذه الإجابة.

﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارة إلى البلاء الحسن ومحله الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ معطوف عليه أى المقصد ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين وإبطال حيلهم وقيل المشار إليه القتل أو الرمى والمبتدأ الأمر أى الأمر ذلكم أى القتل أو الرمى فيكون قوله تعالى (وأن الله ) إلخ من قبيل عطف البيان وقيل: المشار إليه الجميع بتأويل ما ذكر، وجوز جعل اسم الإشارة مبتدأ محذوف الخبر وجعله منصوباً بفعل مقدر.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو بكر (موهن) بالتشديد ونصب كيد، وقرأ حفص عن عاصم بالتخفيف والإضافة وقرأ الباقون بالتخفيف والنصب[١].

## مناسبة الآيات لما قبلها:

كانت الآيات السابقة فى بناء شخصية المقاتل وإرادة القتال ووضع النظام العام الذى يجب على المجاهدين فى سبيل الله اتباعه على مر العصور وليس فى هذه المعركة فقط مع بيان خطورة التولى يوم الزحف ووضع القواعد التى تجيز للمجاهد فى سبيل الله أن يتحرف أو يتحيز فى المعركة فكأن المناسب أن يبين لنا بعد ذلك فى الآيات الكريمة التى بين أيدينا النعمة الإلهية التى أحاطت بالمسلمين منذ بداية المعركة حيث أن النصر كان بإنجاح الله تعالى لمسعى المؤمنين فى القتل ومسعى الرسول ﷺ فى الرمى وبوجه عام ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾.

## سبب النزول:

(روى أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد

---

(١) تفسير الألوسى.

منهم ما فعل: قتلت كذا، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك ونزلت الآية اعلاماً بأن الله تعالى هو المميت والمقدر لجميع الأشياء، وأن العبد إنما يشارك بتكسبه وقصده)(١).

وقال السدى: قال رسول الله ﷺ لعلى رضى الله عنه يوم بدر (أعطنى حصباً من الأرض) فناول حصباً عليه تراب فرمى به فى وجوه القوم فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينيه من ذلك التراب شىء ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل الله ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾.

## المعنى التفصيلى العام للآيات:

هذه الآيات تتحدث عن نصر الله وتبين أن الله سبحانه وتعالى هو المدافع عن الذين آمنوا والمحقق الفعلى لكل ما يصدر عنهم من خير فهو الذى أظفر المسلمين على الكافرين وحقق لهم هذا النصر المعجز ولكن يثور بنا تساؤل هل تتحقق هذه النصرة من الله سبحانه وتعالى فى جميع الظروف والأحوال أم أن هناك قوانين معينة إذا تحققت تحقق النصر؟

الواقع أن هناك عوامل عدة للنصر فى الإسلام تكفل بذكرها القرآن الكريم تكون هى عادة السبب فى الانتصار على الأعداء نذكر منها:

يقول الله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾(٢).

(١) تفسير القرطبى .
(٢) سورة التوبة آية: ١١١ .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(١).

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾(٢).

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(٣).

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾(٤).

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾(٥).

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(٦).

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾(٧).

﴿ فإن تنازعتم في شيء فردوه إلي الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾.

والإيمان الضعيف مرفوض فى صفوف المقاتلين.

---

(١) سورة الحجرات آية: ١٥.
(٢) سورة الأنفال آية: ٦٠.
(٣) سورة الأنفال آية: ٤٥.
(٤) سورة النساء آية: ٧٦.
(٥) سورة الصف آية: ٤.
(٦) سورة الأنفال آية: ٤٦.
(٧) سورة آل عمران آية: ١٠٣.

﴿ لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾(١).

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾(٢).

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾(٣).

ثم يكون اتباع شريعة الله ونصرته سبيل إلى تحقق وعد الله بقوله:

﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(٤).

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(٥).

وتحقق النصر يكون بالاعتماد على الله فى جميع المواطن:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٦).

---

(١) سورة التوبة آية: ٤٤، ٤٥.
(٢) سورة التوبة آية: ٤٧.
(٣) سورة التوبة آية: ٨١.
(٤) سورة محمد آية: ٧.
(٥) سورة الحج آية: ٤٠.
(٦) سورة التوبة آية : ٢٥ ـ ٢٧.

هذه هى العوامل فى نظرنا التى تحقق قول الله تعالى ﴿ ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾ .

ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ البلاء ها هنا النعمة، والمعنى ولينعم على المؤمنين إنعاماً جميلاً. واللام متعلق بمحذوف: أى وللإنعام عليهم بنعمه الجميلة فعل ذلك لا لغيره، أو الواو عاطفة لما بعدها على علة مقدرة قبلها: أى ولكن الله رمى ليمحق الكافرين وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً .

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ سميع لدعائهم عليم بأحوالهم.

والإشارة بقوله ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إلى البلاء الحسن، وهو فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف: أى الغرض ﴿ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى أن الغرض منه سبحانه بما وقع مما حكته الآيات السابقة ابلاء المؤمنين وتوهين كيد الكافرين، وقيل المشار إليه القتل والرمى، وقد قرىء بتشديد الهاء وتخفيفها مع التنوين، وقرأ الحسن بتخفيف الهاء مع الإضافة والكيد: المكر[١] .

**وأن تعودوا نعـد:**

يقول الله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

**معانى المفردات:**

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ﴾ الأية خطاب لكفار قريش وذلك أنهم كانوا قد

---

(١) فتح القدير للإمام الشوكانى.

دعوا الله أن ينصر أحب الطائفتين إليه، وروى أن الذى دعا بذلك أبو جهل فنصر الله المؤمنين، وفتح لهم، ومعنى أن تستفتحوا: تطلبوا الفتح، ويحتمل أن يكون الفتح الذى طلبوه بمعنى النصر أو بمعنى الحكم.

﴿ فَقَدْ جَاءَكُمُ الفتح ﴾ أن كان الخطاب للكفار فالفتح هنا بمعنى الحكم: أى قد جاءكم الحكم الذى حكم الله عليكم بالهزيمة والقتل والأسر، وإن كان الخطاب للمؤمنين، فالفتح هنا يحتمل أن يكون بمعنى الحكم، لأن الله حكم لهم، أو بمعنى النصر[1].

﴿ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أى ترجعوا عن الكفر فهو الأصوب المؤدى إلى الفوز فى الدنيا والآخرة وهذا يدل على أن الخطاب للكفار.

﴿ وَإِن تَعُودُوا نَعُد ﴾ أى فى حالة عودتكم للاستفتاح أو القتال يعد الله سبحانه وتعالى لنصر المؤمنين عليكم وقتالكم حتى يكون الفوز لدين الله.

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ جماعتكم التى تجمعونها وتجأرون بها شيئاً من الاغناء، ولو كانت هذه الجماعة من الكثرة بمكان.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فإن سنة الله تعالى جارية فى نصر المؤمنين وخذلان الكافرين.

**مناسبة الآية لما قبلها:**

بعد أن خاطب الله سبحانه وتعالى فى الآيات السابقة المؤمنين ببيان الحصيلة النهائية لانتصارهم على الكفار موضحاً لهم ولرسول

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى.

اللهﷺ أن النصر بيد الله يؤتيه من يشاء، وجه سبحانه وتعالى الخطاب للكفار متهكماً عليهم فى طلبهم الفتح معتقدين أنهم أصحاب الرأى الصواب وأنهم أنصار الله وأحباؤه وموضحاً لهم أنه تعالى لهم بالمرصاد فإذا عادوا لهذا القتال مرة أخرى نصر الله تعالى المسلمين عليهم ولن تغنى عنهم فئتهم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين.

## سبب نزول الآية:

قال محمد بن إسحاق إن أبا جهل قال يوم بدر: اللهم أينا كان أقطع للرحم وآتانا بما لا نعرف فاحنه الغداة، وكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ إلى آخر الآية.

وقال الإمام أحمد بسنده عن عبدالله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم اللهم اقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف: فاحنه الغداة فكان المستفتح[1].

وقال السدى: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر أخذوا بأستار الكعبة فاستنصروا الله وقالوا اللهم انصر أعلى الجندين وأكرم الفيئتين وخير القبيلتين، فقا الله ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ يقول قد نصرت ما قلتم وهو محمد ﷺ[2].

## المعنى التفصيلى العام:

فى هذه الآية الكريمة يتجلى المدد الإلهى للرسول ﷺ وصحابته

---

(١) يقول الإمام ابن كثير: أخرجه النسائى فى التفسير من حديث صالح بن كيسان عن الزهرى به وكذا رواه الحاكم فى مستدركه من طريق الزهرى به وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وروى نحو هذا عن ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة ويزيد بن رمان وغير واحد.

(٢) تفسير ابن كثير.

بأوضح ما يكون لقد ثبت تماماً بنص القرآن الكريم أن المشركين طلبوا منه تعالى أن ينصر أحق الطائفتين بالنصر فتهكم بهم الأسلوب القرآني وسمى ما حل بهم من الهلاك نصراً ومعنى بقية الآية على هذا القول ﴿ وَإِن تَنتَهُوا ﴾ عما كنتم عليه من الكفر والعداوة لرسول الله.

﴿ فَهُوَ ﴾ أى الانتهاء.

﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا ﴾ إلى ما كنتم عليه من الكفر والعداوة ﴿ نَعُدْ ﴾ بتسليط المؤمنين عليكم ونصرهم كما حدث فى يوم بدر.

﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُم ﴾ أى جماعتكم.

﴿ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ ﴾ أى لا تغنى فى جميع الأحوال ولو فى حال كثرتها.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ومن كان الله معه فهو منصور ومن كان الله عليه فهو مخذول. وقرىء بكسر إن وفتحها فالكسر على الاستئناف، والفتح على تقديره: ولأن الله مع المؤمنين فعل ذلك(١).

وذكر الإمام القرطبى معنى ثان للآية فى سياق عرضه للمعالى من ناحية أن الخطاب للمؤمنين أى أن تستنصروا فقد جاءكم النصر، وأن ﴿ تَنتَهُوا ﴾ أى عن مثل ما فعلتموه من أخذ الغنائم والأسرى قبل الأذن ﴿ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ﴿ وَإِن تَعُودُوا ﴾ أى إلى مثل ذلك نعد إلى توبيخكم، كما قال (لولا كتاب من الله سبق)(٢).

ويقول الإمام الشوكانى عن هذا الرأى ولا يخفى أنه يأبى هذا القول

---

(١) بتصرف من فتح القدر للشوكانى.

(٢) تفسير القرطبى.

معنى ﴿ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا ﴾ ويأباه أيضاً ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وتوجيه ذلك لا يمكن إلا بتكليف وتعسف[1].

ويذكر الإمام القرطبى أيضاً معنى ثالث هو: أن يكون ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ خطاباً للمؤمنين وما بعده للكفار، أى وأن تعودوا إلى القتال نعد إلى مثل وقعة بدر. القشيرى: والصحيح أنه خطاب للكفار فإنهم لما نفروا إلى نصرة العير تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللهم انصر أهدى الطائفتين، وأفضل الدينين[2].

ونضيف أيضاً رأى الشوكانى فى هذا التفسير الثالث للآية قوله: وقيل إن الخطاب فى ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾ للمؤمنين وما بعده لكافرين، ولا يخفى ما فى هذا من تفكيك النظم وعود الضمائر الجارية فى الكلام على نمط واحد إلى طائفتين مختلفتين[3].

## فى طاعة الله ورسوله:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾.

## معانى المفردات:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الخطاب للمؤمنين

---

(١) فتح القدير للشوكانى.

(٢) تفسير القرطبى.

(٣) فتح القدير للشوكانى.

المصدقين، أفردهم بالخطاب دون المنافقين اجلالاً لهم وجدد الله عليهم الأمر بطاعة الله والرسول ونهاهم عن التولى عنه، وهذا قول الجمهور.

﴿ وَلا تَوَلَّوْا عَنْهُ ﴾ التولى الاعراض، وقال ﴿ عَنْهُ ﴾ ولم يقل عنهما لأن طاعة الرسول طاعته، وهو كقوله: ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾.

﴿ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ ابتداء وخبر فى موضع الحال، والمعنى وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين فى القرآن[١].

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ ﴾ مثل اليهود أو المنافقين أو المشركين وفى معنى الكلام قولان:

الأول: أنهم قالوا: سمعنا ولم يتفكروا فيما سمعوا فكانوا كمن لم يسمع، قاله الزجاج.

الثانى: أنهم قالوا: سمعنا سماع من يقبل، وليسوا كذلك، حكى عن مقاتل[٢].

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ ﴾ استئناف مسوق لبيان كمال سوء حال المشبه بهم، مبالغة فى التحذير وتقريراً للنهى إثر تقرير، والدواب جمع دابة، والمراد بها أما المعنى اللغوى أو العرفى أى أنه شر من يدب على الأرض أو شر البهائم.

﴿ عِندَ اللَّهِ ﴾ فى حكمه وقضائه.

﴿ الصُّمُّ ﴾ الذين لا يسمعون الحق.

﴿ الْبُكْمُ ﴾ الذين لا ينطقون به.

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

(٢) تفسير القرطبى.

﴿ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ تحقيقاً لكمال سوء حالهم فإن الأصم الأبكم إذا كان له عقل ربما يفهم بعض الأمور ويفهمه غيره ويهتدى إلى بعض مطالبه، أما إذا كان فاقداً للعقل أيضاً فقد بلغ الغاية فى الشريه وسوء الحال، بذلك يظهر كونهم شر الدواب حيث أبطلوا ما به يمتازون عنها.

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴾ أى فى هؤلاء الصم البكم.

﴿ خَيْرًا ﴾ أى شيئاً من جنس الخير.

﴿ لأَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تدبر وفهم ولوقفوا على الحق وآمنوا بالرسولﷺ وأطاعوه.

﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ ﴾ سماع تفهم وتدبير وقد علم ان لا خير فيهم .

﴿ لَتَوَلَّوْا ﴾ ولم ينتفعوا به وارتدوا بعد التصديق والقبول.

﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ لعنادهم(١).

## مناسبة الآيات لما قبلها:

كانت الحصيلة النهائية للآية السابقة تحديد الموقف الإلهى بقوله تعالى ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فكان المناسب بعد ذلك بيان لما يجب على المؤمن فعله واستجابته لمعونة الله تعالى وهو وجوب طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ ولا يكون موقف المؤمن هو موقف (الصم البكم الذين لا يعقلون) فكان هذا أيضاً تحذير من عدم التشبه بمن تركوا الحق خلف ظهورهم ولم ينتبهوا إليه.

## المعنى التفصيلى العام للآيات:

أمر الله سبحانه المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ونهاهم عن التولى عن رسول فالضمير (عنه) عائدة إلى الرسول، لأن طاعة رسول اللهﷺ

---

(١) تفسير الألوسى.

هى من طاعة الله ﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

ويحتمل أن يكون هذا الضمير راجعاً إلى الله وإلى رسوله كما فى قوله ﴿والله ورسوله أحق أن يرضوه﴾.

وقيل الضمير راجع إلى الأمر الذى دل عليه اطيعوا، وأصل تولوا تتولوا، فطرحت إحدى التاءين، هذا تفسير الآية على ظاهر الخطاب للمؤنين، وبه قال الجمهور.

وقيل إنه خطاب للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم فقط. قال ابن عطية: وهذا وإن كان محتملاً على بعد فهو ضعيف جداً، لأن الله وصف من خاطبه فى هذه الآية بالإيمان وهو التصديق، والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشىء، وأبعد من هذا من قال: الخطاب لبنى إسرائيل، فإنه أجنبى من الآية.

وجملة ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ فى محل نصب على الحال، والمعنى: وأنتم تسمعون ما يتلى عليكم من الحجج والبراهين وتصدقون بها ولستم كالصم البكم[١].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنها نزلت فى بنى عبدالدار بن قصى قاله أبو صالح عن ابن عباس.

الثانى: فى اليهود، قريظة والنضير، روى عن ابن عباس أيضاً.

---

(١) فتح القدير للشوكانى.

الثالث: فى المنافقين، قاله ابن إسحاق والواقدى، ومقاتل[١].

أو الجميع من هؤلاء، فإنهم يسمعون بآذانهم من غير فهم ولا عمل، فهم كالذى لم يسمع أصلاً لأنه لم ينتفع بماسمعه[٢].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ ﴾ اختلفوا فيمن نزلت على قولين:

أحدهما: أنها نزلت فى بنى عبدالدار بن قصى، قاله أبو صالح عن ابن عباس.

الثانى: فى المنافقين، قاله ابن اسحاق والواقدى و﴿ الدَّوَاب ﴾ اسم كل حيوان يدب[٣].

(والصم البكم) أى الذين لا يسمعون ولا ينطقون وصفوا بذلك مع كونهم ممن يسمع وينطق لعدم انتفاعهم بالسمع والنطق.

﴿ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ ﴾ ما فيه النفع لهم فيأتونه، وما فيه الضرر عليهم فيجتنبونه فهم شر الدواب عند الله، لأنها تميز بعض التمييز، وتفرق بين ما ينفعها ويضرها[٤].

﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴾ والمقصود فى هؤلاء الصم والبكم من أعداء الإسلام.

﴿ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ﴾ بحيث يعقلون ما يبلغ إليهم من الهدى والرشاد وخيرى الدنيا والآخرة.

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.
(٢) فتح القدير للشوكانى ويقصد بالجميع الثلاث أقوال السابقة.
(٣) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.
(٤) فتح القدير للشوكانى.

﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾: **لأنه تعالى قد علم أن لا** خير فيهم فلن ينتفعوا بهذا السماع بل سيكونون صم بكم عمى عما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ.

**الاستجابة لله وللرسول ﷺ حياة:**

**﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾.**

**معاني المفردات:**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ﴾ : هذا الخطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف. والاستجابة: **الإجابة.**

﴿ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾: لما تقوم به حياة المؤمن سواء عقيدة أو تشريع أو أخلاق وسنرى تفصيل ذلك في المعنى العام.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ : هي الحيلولة بمعنى مجازي كقوله تعالى: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وعلى حد تعبير الإمام الألوسي: (هو مجاز عن غاية القرب من العبد لأن من فصل بين شيئين كان أقرب إلى كل منهما من الآخر لاتصاله بهما وانفصال أحدهما عن الآخر ولا بعد في أن يكون من باب المجاز المرسل المركب لاستعماله في لازم معناه هو القرب بل أدعي أنه الأنسب وإرادة هذا المعنى هو المروي عن الحسن وقتادة فالآية نظير قوله تعالى: **﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾: أي الله عز وجل إليه تحشرون لا إلى غيره فيجازيكم بحسب مراتب أعمالكم فسارعوا إلى طاعته وطاعة رسوله ﷺ وبالغوا في الاستجابة[1].**

---

(١) تفسير الألوسي.

**مناسبة الآية لما قبلها:**

فى الآيات السابقة بين الله تعالى قيمة النعم التى يحيط بها سبحانه الإنسان وأن الذى لا يستخدم هذه النعم الاستخدام السليم بتأدية ما أمره الله به من طاعة له ولرسوله ﷺ يكون بالأنعام أشبه ثم كان المناسب فى هذه الآية بعد ذلك بيان قيمة الاستجابة لطاعة الله ورسوله ﷺ وبيان أنها دلالة على الحياة وعلى السمو فى هذا العالم وفى الآخرة ولا حياة بدون طاعة لله وللرسول ﷺ.

**المعنى التفصيلى العام للآية:**

فى هذه الآية الكريمة خطاب من الله عز وجل للمؤمنين بالاستجابة له عز وجل ولرسوله ﷺ إذا دعاهم لما يحييهم واختلفت الأقوال فى المراد من قول الله تعالى ﴿إذا دعاكم لما يحييكم﴾ إلى: أحدها: أن الذى يحييكم: كل ما يدعوا الرسول إليه، وهو معنى قول أبى صالح عن ابن عباس: وفى أفراد البخارى من حديث أبى سعيد بن المعلى قال: كنت أصلى فى المسجد فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه، ثم أتيته فقلت: يارسول الله، أنى كنت أصلى، فقال: (ألم يقل الله: استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم) قلت: بلى، ولا أعود إن شاء الله.

الثانى: أنه الحق، رواه شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد.

الثالث: أنه الإيمان رواه ورقاء عن ابن نجيح عن مجاهد، وبه قال السدى.

الرابع: أنه اتباع القرآن قاله قتادة، وابن زيد.

الخامس: أنه الجهاد، قاله ابن اسحاق، وقال ابن قتيبة: هو الجهاد والذى يحى دينهم ويعليهم.

السادس: أنه إحياء أمورهم، قاله الفراء، فيخرج فى إحيائهم خمسة أقوال:

أحدهما: أنه اصلاح أمورهم فى الدنيا والآخرة.

الثانى: بقاء الذكر الجميل لهم فى الدينا، وحياة الأبد فى الآخرة.

الثالث: أنه دوام نعيمهم فى الآخرة.

الرابع: أنه كونهم مؤمنين، لأن الكافر كالميت.

الخامس: أنه يحييهم بعد موتهم، وهو على قول من قال: هو الجهاد لأن الشهداء أحياء، ولأن الجهاد يعزهم بعد ذلهم، فكأنهم صاروا به أحياء(١).

ونرى أن المعنى المراد فى الأقوال السابقة المعنى الأول حيث أن الأحياء أن يشتمل على كل ما سبق قوله من أقوال تالية له ولعل حديث البخارى فى القول الأول يدل على ذلك حيث كان ذكر الرسول ﷺ لهذه الآية يتسم بالعمومية ومجرداً عن أى قيد يفيد معنى من المعانى الأخرى غير الأول.

ثم بعد ذلك يخبرنا الله سبحانه وتعالى: ﴿واعملوا أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾ وقد وردت أقوال كثيرة فى معناها منها:

أحدها: (يحول بين المؤمن وبين الكفر وبين الكافر وبين الإيمان).

رواه ابن ابى طلحة عن ابن عباس، وبه قال سعيد بن جبير.

الثانى: (يحول بين المؤمن وبين معصيته، وبين الكافر وبين طاعته). رواه العوفى عن ابن عباس، وبه قال الضحاك والغراء.

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

الثالث: (يحول بين المرء وقلبه حتى لا يتركه يعقل) قاله مجاهد.

قال ابن الأنباري: المعنى: يحول بين المرء وعقله، فبادروا الأعمال، فإنكم لا تأمنون زوال العقل، فتحصلون على ما قدمتم.

الرابع: أن المعنى: هو قريب من المرء، لا يخفى عليه شيء من سره كقوله: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦] وهذا معنى قول قتادة.

الخامس: يحول بين المرء وقلبه، فلا يستطيع إيماناً ولا كفراً إلا بإذنه قاله السدي.

السادس: يحول بين المرء وبين هواه، ذكره ابن قتيبة.

السابع: يحول بين المرء وبين ما يتمنى بقلبه من طول العمر والنصر وغيره.

الثامن: يحول بين المرء وقلبه بالموت فبادروا الأعمال قبل وقوعه.

التاسع: يحول بين المرء وقلبه بعلمه، فلا يضر العبد شيئاً فى نفسه الا والله عالم به، لا يقدر على تغيبه عنه.

العاشر: يحول بين ما يوقعه فى قلبه من خوف أو أمن فيأمن بعد خوفه، ويخاف بعد أمنه.

وحكى الزجاج أنهم لما فكروا فى كثرة عدوهم وقلة عددهم، فدخل الخوف قلوبهم أعلمهم الله تعالى أنه يحول بين المرء وقلبه بأن يبدله بالخوف الأمن، ويبدل عدوه بالقوة الضعف، وقد أعلمت هذه الآية أن الله تعالى هو المقلب للقلوب المتصرف فيها[1].

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى،

ونحن نرى أن الله تعالى أخبر أن قلوب العباد بيده، وأنه أقرب إليهم من أنفسهم وفى ذلك كما سبق حض على المبالغة فى الامتثال: (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه).

وهو تعبير عن تمكن قدرة الله من الإنسان، بل من مشاعره وخلجات نفسه، بل من نبض قلبه وخفق روجه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾.

وهو إيقاع يوحى للنفس باليقظة والحذر، ودولم المراقبة، فماذا بعد أن يعرف الإنسان أن قلبه الذى يمشى به بين جنبيه إنما هو بقبضة الله تعالى يقلبه كيف يشاء[١]؟

يقول الإمام ابن كثير: وقال قتادة: هو كقوله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وقد وردت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بما يناسب هذه الآية منها[٢]:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن أبى سفيان عن أنس بن مالك رضى الله عنه، قال: كان النبى ﷺ يكثر أن يقول: (يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك).

قال: فقلنا يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟

قال: (نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله تعالى يقلبها).

ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾: فالمرجع إليه سبحانه وتعالى فيجازى المحسن بعمله والمسيء بسيئته.

---

(١) المفهوم الإسلامى للحرب والسلام دكتور محمد السيد جبريل.

(٢) تفسير ابن كثير.

**فى التحذير من الفتنة:**

يقول الله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾: أى لا تختص أصابتها لمن يباشر الظلم منكم بل تغمه وغيره والمراد بالفتنة الذنب وفسر بنحو إقرار المنكر والمداهنة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل فى الجهاد حسبما يقتضيه المعنى، والمصيب على هذا هو الأثر كالشامة والوبال، وحينئذ أما أن يقدر أو يتجوز فى أصابته[1].

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لمن انتهك شرعه وخالف حكمه ودينه وأقر من اعتدى على محارمه.

**مناسبة الآية لما قبلها:**

فى الآيات السابقة كانت أوامر الله سبحانه ونواهيه للمؤمنين مع التحذير من تقليد الكفار ثم بين تعالى مدى قربه من البشر قرباً يجعله يحرك ويوجه القلوب والمشاعر والجوارح كيفما شاء، فكان من المناسب أن تأتى هذه الآية مباشرة للتحذير من الوقوع فى الفتن حتى ولو بعدم الاشتراك فيها فإن الله الذى يحول بين المرء وقلبه يطلب من المسلم أن يكون ايجابياً فى تصرفاته بحيث يكون له دور فى المجتمع يمتنع فيه عن

---

(١) تفسير الألوسى.

الوقوع المباشر فى الفتنة ويجب أيضاً أن يأخذ على يد الواقعين فيها ولا يتخذ المواقف السلبية فى هذا.

**المعنى التفصيلى العام:**

هذه الآية الكريمة تعتبر دستور عام شامل للأمة الإسلامية فى كل زمان ومكان فإنها تضع لنا الشعار الذى يجب على كل مؤمن أن يرفعه وهو أن هذه الحياة الدنيا والآخرة مرتبطة ارتباط وثيق بشرع الله سبحانه وتعالى أوامر ونواهى واتباعاً لسنة الرسول ﷺ وأن أى انحراف عن هذه المنهج القويم أو السكوت على هذا الانحراف يكون له من الوبال ما لا يحصى أو يعد بحيث يمكن أن يصل إلى ضياع يصيب كل منحرف وكل ساكت عن هذا الانحراف فى الدنيا والآخرة ولعل دراسة متأنية لأحوال الأمم فى التاريخ أو فى كتب البلدان تبين لنا أن هذه الآية ما نزلت لكى تكون نوعاً من الترف البلاغى بل لكى تكون منهج عمل لهذه الأمة.

هذا وقد رأى بعض المفسرين عدة تأويلات لهذه الآية نجمعها فيما يلى:

الأول: أنها نزلت فى أصحاب سيدنا محمد ﷺ خاصة، قاله ابن عباس، والضحاك وقال الزبير بن العوام: لقد قرأناها زماناً، وما نرى انا من أهلها، فإذا نحن المعنيون بها.

الثانى: أنها نزلت فى رجلين من قريش، قاله أبو صالح عن ابن عباس ولم يسمهما.

**الثالث: أنها عامة، قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس: فى هذه الآية أمر الله المؤنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيعمهم الله بالعذاب، وقال مجاهد: هذه الآية لكم أيضاً.**

الرابع: قال السدى: نزلت فى أهل بدر خاصة، فأصابتهم يوم الجمل[١].

ونحن نرى أن الاتجاه السليم فى تفسير الآية مع وضعنا الآراء السابقة فى الاعتبار أيضاً أنها أى الآية ـ شاملة لكل فتنة فى كل زمان ومكان لا تصيب فقط الذين ظلموا خاصة.

وفى ذلك يروى الإمام ابن كثير عن على بن أبى طلحة فى رواية له عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية: (أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب)، ويرى الإمام ابن كثير أن (هذا تفسير حسن جداً) على حد تعبيره ثم يعلق بعد ذلك بقوله: ولهذا قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ هى أيضاً لكم.

وكذا قال الضحاك ويزيد بن أبى حبيب، وغير واحد.

وقال ابن مسعود: ما منكم من أحد ألا وهو مشتمل على فتنة أن الله تعالى يقول: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ فأيكم استعاذ فليستعذ بالله من مضلات الفتن.

روى الإمام أحمد بسنده عن حذيفة بن اليمان أن رسول الله ﷺ قال: (والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم)[٢].

وقد سألت السيدة زينب بنت جحش رسول الله ﷺ فقالت له: يارسول الله؟ أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)[٣].

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.
(٢) تفسير ابن كثير.
(٣) رواه مسلم.

وعن النعمان بن بشير عن النبى ﷺ قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا[١] على سفينة فأصاب بعضهم اعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا.

فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً وأن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً)[٢].

ففى هذا الحديث تعذيب العامة بذنوب الخاصة، وفيه استحقاق العقوبة بترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

قال علماؤنا: فالفتنة إذا عملت هلك الكل، وذلك عند ظهور المعاصى وانتشار المنكر وعدم التغيير.

فإن قيل: فقد قال الله تعالى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾. ﴿ كل نفس بماكسبت رهينة ﴾ ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾. وهذا يوجب إلا يؤخذ أحد ذنب أحد، وإنما تتعلق العقوبة بصاحب الذنب.

فالجواب: أن الناس إذا تظاهروا بالمنكر فمن الفرض على كل من رآه أن يغيره، فإذا سكت عليه فكلهم عاصى، هذا بفعله وهذا برضاه، وقد جعل الله فى حكمه وحكمته الراضى بمنزلة العامل، فانتظم بالعقوبة، قاله ابن العربى، وهو مضمون الأحاديث ومقصود الآية: واتقوا فتنة تتعدى الظالم، فتصيب الصالح والطالح[٣].

---

(١) اقترعوا.
(٢) رواه البخارى والترمذى.
(٣) تفسير القرطبى.

**فى تذكير المؤمنين بنعم الله تعالى:**

يقول الله تعالى: ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ ﴾ : أى فى العدد.

﴿ مُّسْتَضْعَفُونَ ﴾: خبر ثان، وجوز أن يكون صفة لقليل.

﴿ فِي الأَرْضِ ﴾ : أى أرض مكة تحت أيدى كفار قريش والخطاب للمهاجرين، أو تحت أيدى فارس والروم والخطاب للعرب كافة مسلمهم وكافرهم على ما نقل عن وهب، واعترض بأنه بعيد لا يناسب المقام مع أن فارس لم تحكم على جميع العرب.

﴿ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ ﴾ : خبر ثالث أو صفة ثانية لقليل وصف بالجملة بعدما وصف بغيرها.

﴿ فَآوَاكُمْ ﴾: أى إلى المدينة أو جعل لكم مأوى تتحصنون به من أعدائكم.

﴿ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ ﴾ بمظاهرة الأنصار، أو بامداد الملائكة يوم بدر أو بأن قوى شوكتكم إذ بعث منكم من تضطرب قلوب أعدائكم من اسمه.

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴾ : من الغنائم ولم تطب إلا لهذه الأمة، وقيل: هى عامة فى جميع ما أعطاهم من الأطعمة اللذيذة، والأول أنسب بالمقام والامتنان به هنا أظهر، والثانى متعين عند من يجعل الخطاب للعرب.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ : هذه النعم الجليلة[١].

## مناسبة الآية لما قبلها:

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى للمؤمنين وجوب طاعته وطاعة رسوله ﷺ مع توضيح وجوب اتقاء الفتنة والتحذير من الوقوع فيها سواء باتيان الظلم أو عدم الوقوف فى وجه الظالمين فكان من المناسب بعد ذلك تأكيد هذه الطاعة لله وللرسول ﷺ والتحذير من الفتنة ببيان نعم الله تعالى عليهم حيث كانوا قليلين فكثرهم ومستضعفين خائفين فقواهم ونصرهم، وفقراء عالة فرزقهم من الطيبات وهذا التنبيه بهذه النعم يوجب عليهم بالتالى الطاعة وترك المخالفة.

## المعنى التفصيلى العام للآيات:

﴿وَاذْكُرُوا﴾ مشتق من الذكر- بضم الذال - وهو التذكر لا ذكر اللسان، أى تذكرو.

و﴿إِذْ﴾ اسم زمان مجرد عن الظرفية، فهو منصوب على المفعول به، أى فاذكروا زمن كنتم قليلاً.

وجملة ﴿أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾ مضاف إليها ﴿إِذْ﴾ ليحصل تعريف المضاف، وجيء بالجملة اسمية للدلالة على ثبات وصف القلة والاستضعاف فيهم.

وأخبر بـ ﴿قَلِيلٌ﴾ وهو مفرد عن ضمير الجماعة لأن قليلاً وكثيراً قد يجيئان غير مطابقين لما جريا.

والأرض يراد بها الدنيا بالتعريف شبيه بتعريف الجنس، أو أريد بها أرض مكة، فالتعريف للعهد، والمعنى تذكير المؤمنين بأيام إقامتهم بمكة

(١) تفسير الألوسى.

قليلاً مستضعفين بين المشركين فإنهم كانوا حينئذ طائفة قليلة العدد، قد جفاهم قومهم، وعادوهم فصاروا لا قوم لهم، وكانوا على دين لا يعرفه أحد من أهل العالم فلا يطمعون فى نصر موافق لهم فى دينهم وإذا كانوا كذلك وهم فى مكة فهم كذلك فى غيرها من الأرض فآواهم الله بأن صرف أهل مكة عن استئصالهم ثم بأن قيض الأنصار أهل العقبة الأولى وأهل العقبة الثانية، فأسلموا وصاروا أنصاراً لهم بيثرب، ثم أخرجهم من مكة إلى بلاد الحبشة فأواهم بها، ثم أمرهم بالهجرة إلى يثرب فآواهم بها، ثم صار جميع المؤمنين بها أعداء للمشركين فنصرهم هناك لك على المشركين يوم بدر، فالله الذى يسر لهم ذلك كله قبل أن يكون لهم فيه كسب أو تعمل، أفلا يكون ناصراً لهم بعد أن ازدادوا وعزوا وسعوا للنصر بأسبابه، وأفلا يستجيبوا له إذا دعاهم لما يحيهم وحالهم أقرب إلى النصر منها يوم كانوا قليلاً مستضعفين.

والتخطف شدة الخطف والخطف الأخذ بسرعة وهو هنا مستعار للغلبة السريعة لأن الغلبة شبه الأخذ، فإذا كانت سريعة اشبهت الخطف، قال تعالى ﴿ ويتخطف الناس من حولهم ﴾ أى يأخذكم أعداؤكم بدون كبرى منسقة ولا طول محاربة إذ كنتم لقمة سائغة لهم وكانوا أشد منكم قوة، لولا أن الله صرفهم عنكم، وقد كان المؤمنون خائفين فى مكة، وكانوا خائفين فى طرق هجرتيهم، وكانوا خائفين يوم بدر، حتى أذاقهم الله نعمة الأمن من بعد النصر يوم بدر.

و﴿ النَّاسُ ﴾ مراد بهم ناس معهودون وهم الأعداء، المشركون من أهل مكة وغيره، أى طائفة معروفة من جنس الناس من الأعراب الموالين لهم.

وما رزقهم الله من الطيبات: هى الأموال التى غنموها يوم بدر.

والايواء: جعل الغير آوياً، أى راجعاً إلى الذى يجعله فيؤول معناه إلى الحفظ والرعاية.

والتأييد: التقوية أى جعل الشيء ذا أيد، أى ذا قدرة على العمل لأن اليد يكنى بها عن القدرة قال تعالى: ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾.

وجملة ﴿ **ورزقكم من الطيبات** ﴾ ادماج بذكر نعمة توفير الرزق فى خلاة المنة بنعمة النصر وتوفير العدد بعد الضعف والقلة فإن الأمن ووفرة العدد يجلبان سعة الرزق.

ومضمون هذه الآية صادق أيضاً على المسلمين فى كل عصر من عصور النبوة والخلافة الراشدة، فجماعتهم لم تزل فى ازدياد عزة ومتعة، ولم تزل منصورة على الأمم العظيمة التى كانوا يخافونها من قبل أن يؤمنوا، فقد نصرهم الله على هوازن يوم حنين، ونصرهم على الروم يوم تبوك ونصرهم على الفرس يوم القادسية، وعلى الروم فى مصر، وفى برقة، وفى افريقية، وفى بلاد الجلالقة، وفى بلاد الفرنجة من أوروبا، فلما زاغ المسلمون وتفرقوا أخذ أمرهم يقف ثم ينقبض.

وقد نبههم الله تعالى بقوله: ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون** ﴾ فلما اعطوا حق الشكر دام أمرهم فى تصاعد، وحين نسوه أخذ أمرهم فى تراجع ولله عاقبة الأمور.

ولم يزل النبى ﷺ ينبه المسلمين بالموعظة أن لا يحيدوا عن أسباب بقاء عزهم، وفى الحديث، عن حذيفة بن اليمان قال: **(قلت يارسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير شر؟ قال: نعم.**

**قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟**

قال: نعم وفيه دخن.

وفى حديث آخر: (بدىء هذا الدين غريباً وسيعود كما بدىء)[١].

## فى التحذير من العصيان الخفى:

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾.

## معانى المفردات:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ :

والخون والخيانة: ابطال ونقض ما وقع عليه تعاقد من دون اعلان بذلك النقض، قال تعالى: **﴿ وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم علي سواء ﴾**.

والخيانة ضد الوفاء[٢].

وفى ذلك يقول الزمخشرى: (واصل معنى الخون النقص، كما أن أصل الوفاء التمام، ثم استعمل الخون فى ضد الوفاء لأنك إذا خنت الرجل فى شىء فقد ادخلت عليه النقصان فيه)[٣].

وفى خيانة الله قولان:

أحدهما: ترك فرائضه.

والثانى: معصية رسوله.

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

(٢) المرجع السابق.

(٣) تفسير الزمخشرى.

وفى خيانة الرسول قولان:

أحدهما: مخالفته فى السر بعد طاعته فى الظاهر.

والثانى: ترك سنته.

وفى المراد بالأمانات ثلاثة أقوال.

أحدها: أنها الفرائض، قاله ابن عباس، وفى خيانتها قولان:

أحدهما: تنقيصها.

والثانى: تركها.

القول الثانى: أنها الدين قاله ابن زيد، فيكون المعنى: لا تظهروا الإيمان وتبطنوا الكفر.

القول الثالث: أنها عامة فى خيانة كل مؤتمن[1].

قوله تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ : تحذير من الخيانة التى تترتب على حب الأموال والأولاد وهما غالب أسباب الخيانة.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾: معطوفة على قوله تعالى ﴿ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ إشارة إلى أن البعد عن المنهيات يترتب عليه أجر من الله تعالى خير من فتنتهم بسبب الأموال والأولاد.

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

هذه الآيات استئناف للآيات السابقة بتحذير المؤمنين من المعصية الخفية بأن يظهروا الاستجابة فى ظاهر أمرهم ويبطنوا خلاف ذلك من العصيان بعد أن أمرهم من قبل بالطاعة والاستجابة لله والرسولﷺ.

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

**سبب نزول الآية:**

ذكر الواحدى، قال: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ الآية نزلت فى أبى لبابة بن عبدالمنذر الأنصارى، وذلك أن رسول الله ﷺ حاصر يهود قريظة إحدى وعشرين ليلة، فسألوا رسول الله ﷺ الصلح على ما صالح عليه إخوانهم من بنى النضير، على أن يسيروا إلى إخوانهم باذرعات وأريحا من أرض الشام، فأبى أن يعطيهم ذلك إلى أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا: أرسل إلينا أبا لبابة ـ وكان مناصحاً لهم، لأن عياله وماله وولده كانت عندهم ـ فبعثه رسول الله ﷺ فأتاهم فقالوا: يا أبا لبابة ما ترى؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ، فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه أنه الذبح فلا تفعلوا، قال أبو لبابة: والله مازالت قدماى حتى علمت أنى قد خنت الله ورسوله.

فنزلت هذه الآية، فلما نزلت شد نفسه على سارية من سوارى المسجد، وقال: والله لا أذوق طعاما ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله على، فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه، فقيل له: يا أبا لبابة قد تيب عليك.

فقال: لا والله لا أحل نفسى حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يحلنى فجاءه فحله بيده.

ثم قال أبو لبابة: أن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب،، وأن انخلع من مالى.

فقال: رسول الله ﷺ: يجزيك الثلث أيضاً أن تتصدق به[1].

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول.

قال أبو جعفر الطبرى ٤٨٣/١٣ وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال: إن الله نهى المؤمنين عن خيانته وخيانة رسوله وخيانة أمانته، وجائز أن تكون نزلت فى أبى لبابة، وجائز أن تكون نزلت فى غيره، ولا خبر عندنا بأى ذلك كان يجب التسليم له بصحته[١].

وقال ابن كثير ٣٠١/١٢: والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند الجماهير من العلماء[٢].

ويقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عن سبب النزول للآية:

وهذا الخبر لم يثبت فى الصحيح، ولكنه اشتهر بين أهل السير والمفسرين، فإذا صح. وهو الأقرب كانت الآية مما نزل بعد زمن طويل من وقت نزول الآيات التى قبلها، المتعلقة باختلاف المسلمين فى أمر الأنفال فإن بين الحادثتين نحومن ثلاث سنين ويقرب هذا ما أشرنا إليه آنفاً من انتفاء وقوع خيانة لله ورسوله بين المسلمين[٣].

والقارىء يواجه أمام هذه الرواية موقفاً يتطلب إيضاحاً، فمن المعلوم أن ما أوقعه الرسول ﷺ ببنى قريظة قد حدث بعد غزوة الأحزاب وخيانتهم العهود فيها، أى فى السنة الخامسة للهجرة، بينما الآية من سورة الأنفال التى نزلت ـ كما عرفنا ـ عقب غزوة بدر فى السنة الثانية للهجرة، أى قبل ما حدث لبنى قريظة بنحو ثلاث سنين.

---

(١) تفسيرالطبرى.
(٢) تفسير ابن كثير.
(٣) التحرير والتنوير.

وتفسير ذلك أما أن يكون بأن الآية قد نزلت مع سائر سورة الأنفال عقب بدر، وهى مع ذلك تتناول فعلة أبى لبابة، ويكون النص على نزولها فيه من قبيل تطبيق العام على أحد أفراده.

وأما أن يكون بأنها نزلت بعد ما حدث من أبى لبابة، ثم أخذت موضعها فى سورة الأنفال بتوقيف من النبى ﷺ وعليه يكون من قول ابن إسحاق (فلما انقضى أمر بدر أنزل الله من القرآن الأنفال بأسرها) محمولاً على سائر السورة باستثناء مثل تلك الآية التى نزلت فى موقف خاص[١].

ولعل هذا ما ارتآه الشيخ محمد رشيد رضا بقوله: فيحتمل أن يكون المراد بنزول الآية فى أبى لبابة أنها تتناول فعلته - وهذا التعبير يكثر عنهم فيما يسمونه أسباب النزول، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، ومن ذلك قول المغيرة بن شعبة: نزلت هذه الآية فى قتل عثمان رضى الله عنه، وحتما أن تكون الآية نزلت بعد السورة فألحقت بها بأمر النبى ﷺ[٢].

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

بدراستنا السابقة للمفردات القرآنية وسبب النزل نصل إلى المعنى التفصيلى العام للآيات وهو فى هذه الحالة يكون بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ومن هنا نستطيع أن نفسر هذه الآية بأن المطلوب الحقيقى من المسلم هو أن يكون مؤمناً إيماناً تتحكم فيه التعاليم الإلهية تحكماً تاماً ويسير فى إطارها راضياً مسلماً مستسلماً.

**﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتي يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا**

---

(١) المفهوم الإسلامى للحرب والسلام دكتور محمد السيد جبريل.
(٢) تفسير المنار.

في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾.

فالإنسان لا يؤمن حتى يحكم رسول الله ﷺ فى أمور عقيدته وفى أمور أخلاقه وفى أمور تشريعه بل وحتى يتقبل ذلك كله فى سكينة واطمئنان واغتباط.

ويصف الله المؤمنين الصادقين فيقول: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾(١).

وهذا الوصف للمؤمنين يتناول وصف الإيمان القلبى: إنه إيمان لا ريب فيه.

ويتناول الأثر والمظهر، أنه الجهاد فى سبيل الله ما آمن به: جهاد النفس، وجهاد المال، وجهاد بجميع أقطار النفس وجهاد كل ما تملك.

وهذه الآية تعتبر مقياساً صادقاً لكل من أراد ان يتبين حقيقة إيمانه.

الصراط المستقيم غايته ونهايته التى يؤدى إليها، إنما هى الله سبحانه وتعالى:

وقد حددها سبحانه بقوله: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾(٢).

وليس دون الله منتهى للمؤمن، وغاية المؤمن كل غايته، إنما هى الله سبحانه وتعالى.

على أن الله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين مبيناً خطواتهم فى الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، أو مبيناً الطريق نفسه فى تساميه وتدرجه.

---

(١) سورة الحجرات آية: ١٥.

(٢) سورة النجم آية: ٤٢.

فيقول سبحانه في وصفهم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

من هذا المنطلق يتبين لنا بوضوح أن الخيانة تتنافى تماماً في الجو الإسلامي مع الإيمان الخالص لقد سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: (إنه الإخلاص).

ويقول سبحانه: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[٢] فكل ما ليس خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى لا يثيب عليه ولا يتقبله.

والأمانة مشتقة من الأمن اسم لما يودعه الإنسان عند غيره لأنه يثق فيه ولن يضيع تلك الأمانة ثم يثور بنا تساؤل لما أضيفت الأمانات إلى المخاطبين في هذه الآية؟

للإجابة على ذلك نقول إنها بمنزلة ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ فهي مبالغة شديدة في بيان مدى خطورة الخيانة وفظاعتها فكأنك أيها الإنسان تنقض أمانة منسوبة إليك.

وقد حذر النبي ﷺ من إضاعة الأمانة وبين مدى خطورة التهاون فيها، فعن حذيفة بن اليمان قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين: (رأيت أحدهما وأنا انتظر الآخر:

حدثنا أن الأمانة نزلت على جذر قلوب الرجال ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة، وحدثنا عن رفعها فقال ينام الرجل النومة فتقبض من قلبه فيظل أثرها مثل الوكت، ثم ينام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل أثر

---

(١) سورة التوبة آية: ١١٢.

(٢) سورة الزمر آية: ٣.

المجل كجمرد حرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً وليس فيه شيء ويصبح الناس يتبايعون ولا يكاد أحد يؤدى الأمانة فيقال إن فى بنى فلان رجلاً أميناً ويقال للرجل ما أعقله وما أظرفه وما أجلده، وما فى قلبه مثقال حبة خردل من إيمان)[١].

وقوله تعالى بعد ذلك ﴿ وَأَنتُمْ تَعْلَمُون ﴾ لبيان شدة قبح فعل الخائن حيث أنه يعلم بمدى خيانته ومع هذا العلم لا ينتهى عن فعله فالحال هنا بمنزلة الصفة الكاشفة فى قول الله تعالى ﴿ فلا تجعلوا لله اندادا وأنتم تعلمون ﴾ وليس المراد تقييد الخيانة بالعلم بها فالخيانة أمر بغيض سواء علمت أم لم تعلم. أو أنكم تعلمون تبعة ذلك ووباله على الإسلام.

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ابتدأ هذه الجملة بقوله اعلموا ليبعث المزيد من الاهتمام على التنبيه المراد إلقاؤه مثل قول الله تعالى ﴿ واعلموا أن الله شديد العقاب ﴾ وهذا التنبيه الشديد للدلالة على أن مبعث الخيانة عادة هو حب الأموال والأولاد.

يقول الأستاذ سيد قطب فى قوله تعالى ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية برما يعلم خالقها من تركيبها الخفى، وبما يطلع منها على الظاهر والباطن، وعلى المنجنبات والدروب المسالك!

وهو سبحانه يعلم مواطن الضعف فى هذه الكينونة، ويعلم أن الحرص على الأموال وعلى الأولاد من أعمق مواطن الضعف فيها..

---

(١) صحيح البخارى.

والوكت سواد يكون فى البسر إذ قارب أن يصير رطباً والمجل غلظ الجلد من أثر العمل والخدمة، ونفط تقرح ومنتبرا منتفخاً.

ومن هنا ينبهها إلى حقيقة هبة الأموال.. لقد وهبها الله للناس ليبلوهم بها ويفتنهم فيها، فهى من زينة الحياة الدنيا التى تكون موضع امتحان وابتلاء، ليرى الله فيها صنيع العبد وتصرفه.. أيشكر عليها ويؤدى حق النعمة فيها؟ أم يشتغل بها حتى يغفل عن أداء حق الله فيها؟ : ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾.. فالفتنة لا تكون بالشدة وبالحرمان وحدهما.. أنها كذلك تكون بالرخاء وبالعطاء أيضاً ! ومن الرخاء والعطاء هذه الأموال والأولاد..

هذا هو التنبيه الأول: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

فإذا انتبه القلب إلى موضع الامتحان والاختبار، كان ذلك عوناً له على الحذر واليقظة والاحتياط، أن يستغرق وينسى ويخفق فى الامتحان والفتنة.

ثم لا يدعه الله بلا عون منه ولا عوض.. فقد يضعف عن الأداء - بعد الانتباه - لثقل التضحية وضخامة التكليف، وبخاصة فى موطن الضعف فى الأموال والأولاد إنما يلوح له بما هو خير وأبقى ليستعين به على الفتنة ويتقوى(١).

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن مال إليه سبحانه وآثر رضاه عليهما وراعى حدوده فيهما فأنيطوا هممكم بما يؤديكم إليه(٢).

وهو المعنى المراد من عطف الله سبحانه وتعالى قوله ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ على قوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

---

(١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب.

(٢) تفسير الألوسى.

**من نتائج تقوى الله:**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ خاطب الله تعالى المؤمنين بصفتهم تذكيراً لهم بعهد الإيمان وما يترب عليه.

﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ ﴾ بالبعد عن الخيانة لله وللروسل ﷺ وترك المعصية.

﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ : الفرقان أصله مصدر كالشكران والغفران والبهتان وهو ما يميز بين أمرين ومن هنا تعددت معانيه فى الآية فكان من معانيها:

١ ـ يجعل لكم مخرجاً فى الدين من الضلال.

٢ ـ أنه النجاة وبه قال قتادة والسدى.

٣ ـ النصر وقاله الفراء.

٤ ـ أنه هدى فى قلوبهم يفرقون به بين الحق والباطل، قاله ابن زيد وابن إسحاق.

﴿ وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾: فيستر الذنوب الدنيا ويتجاوز عنها فى الآخرة فلا تكرار بين التكفير والغفران ثم ينبه سبحانه وتعالى على أن ما وعد لهم على التقوى تفضل منه سبحانه وإحسان وأنها بمعزل عن أن توجب عليه جل شأنه شيئاً[1].

(١) تفسير الألوسى:

## مناسبة الآية لما قبلها:

فى الآيات السابقة كان التنبيه والتحذير على سوء عاقبة العصيان ثم خوطب المؤمنون بوصف الإيمان تأكيداً لروابطه وتذكيراً لهم بعهده فكان من المناسب ذكر هذه الآية كاستئناف بيانى متصل بالآيات السابقة للترغيب فى التقوى وبيان حسن عاقبتها مع الوعد بأن يجعل الله لهم فرقاناً ويكفر عنهم السيئات ويغفر لهم إن هم داموا على التقوى والله ذو الفضل العظيم.

## المعنى التفصيلى العام للآية:

التقوى يقال أصلها فى اللغة قلة الكلام، حكاه ابن فارس. قلت: ومنه الحديث: (التقى ملجم والمتقى فوق المؤمن والطائع) وهو الذى يتقى بصالح عمله وخالص دعائه عذاب الله تعالى، مأخوذ من اتقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينك وبينه، كما قال النابغة:

وقال آخر:

وخرج أبو محمد عبدالغنى الحافظ من حديث سعيد بن زربى أبى

**سقط النصيف ولم تر اسقاطه　　　فتناولته واتقتنا باليد**

عبيدة عن عاصم بن بهدلة عن رز بن حبيش عن ابن مسعود قال قال

**فألقت قناعا دونه الشمس واتقت　　　بأحسن موصولين كف ومعصم**

يوماً لابن أخيه: يا ابن أخى ترى الناس ما أكثرهم؟ قال: نعم، قال: لا خير فيهم إلا عالم أو متعلم.

وقال أبو يزيد البسطامي: المتقى من إذا قال قال الله، ومن إذا عمل عمل لله.

وقال أبو سليمان الدارانى: المتقون الذين نزع الله عن قلوبهم حب الشهوات وقيل: المتقى الذى اتقى الشرك وبرىء من النفاق.

وسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه انبأ عن التقوى، فقال:

هل أخذت طريقاً ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فما عملت فيه؟ قال:تشمرت وحذرت، قال فذاك التقوى، وأخذ هذا المعنى ابن المعتز فنظمه:

**خل الذنوب صغيرها**

**وكبيرها ذاك التقى**

**واصنع كماش فوق أرض**

**الشوك يحذر ما يرى**

**لا تحقرن صغيرة**

**إن الجبال من الحصى**

والتقوى فيها جماع الخير كله، وهى وصية الله فى الأولين والآخرين، وهى خير ما يستفيده الإنسان، كما قال أبو الدرداء وقد قيل له: إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما حفظ عنك شىء، فقال:

**يريد المرء أن يؤتى مناه**

**ويأبى الله إلا ما أرادا**

**يقول المرء فائدتى ومالى**

**وتقوى الله أفضل ما استفادا**

والأصل فى التقوى: وقوى على وزن فعلى فقلبت الواو تاء من وقيته أقيه أى منعته، ورجل تقى أى خائف، أصله وقى وكذلك تقاة كانت فى الأصل وقاة كما قالوا: تجاه وتراث والأصل وجاه ووراث.

وكان الله عالماً بأنهم يتقون أم لا يتقون، فذكر بلفظ الشرط، لأنه خاطب العباد بما يخاطب بعضهم بعضاً. فإذا اتقى العبد ربه ـ وذلك باتباع أوامره واجتناب نواهيه ـ وترك الشبهات مخافة الوقوع فى المحرمات، وشحن قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، وتحفظ من شوائب الشرك الخفى والظاهر بمراعاة غير الله فى الأعمال، والركون إلى الدنيا بالعفة عن المال، جعل له بين الحق والباطل فرقاناً[١].

والفرقان أصله مصدر كالشكران والغفران والبهتان وهو ما يفرق أى يميز بين شيئين متشابهين وقد أطلق بالخصوص على أنواع من التفرقة فأطلق على النصر لأنه يفرق بين حالين كانا محتملين قبل ظهور النصر، ولقب القرآن بالفرقان لأنه فرق بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ﴾[٢]. ولعل اختياره هنا لقصد شموله ما يصلح للمقام من معانيه، فقد فسر بالنصر[٣].

وعن ابن وهب وابن القاسم وأشهب أنهم سألوا مالكاً عن قوله تعالى: ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ قال مخرجاً ثم قرأ (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه)[٤].

قال ابن عباس والسدى ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة ومقاتل وابن حبان وغير واحد (فرقاناً) مخرجاً زاد مجاهد فى الدنيا والآخرة، وفى رواية عن ابن عباس (فرقاناً) نجاة، وفى رواية عنه نصراً، وقال

---

(١) بتصرف من تفسير القرطبى جزء ١ و٧.
(٢) الفرقان: ١.
(٣) تفسير التحرير والتنوير.
(٤) أحكام القرآن لابن العربى .

محمد بن إسحاق (فرقاناً) أى فصلاً بين الحق والباطل وهذا التفسير من ابن اسحاق أعم مما تقدم وهو يستلزم ذلك كله، فإن من أتقى الله بفعل أوامره وترك زواجره وفق لمعرفة الحق من الباطل، فكان ذلك سبب نصره ونجاته ومخرجه من أمور الدنيا وسعادته يوم القيامة وتكفير ذنوبه وهو محوها، وغفرها سترها عن الناس وسبباً لنيل ثواب الله الجزيل كقوله تعالى: ﴿ يا أيها الناس اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم ﴾[١].

هذا وقد اشعر قوله (لكم) أن الفرقان شيء نافع لهم فالظاهر أن المراد منه كل ما فيه مخرج لهم ونجاة من التباس الأحوال وارتباك الأمور وانبهام المقاصد، فيؤول إلى استقامة أحوال الحياة، حتى يكونوا مطمئنين البال منشرحى الخاطر وذلك يستدعى أن يكونوا: منصورين، غالبين، بصراء بالأمور كملة الأخلاق سائرين فى طريق الحق والرشد، وذلك هو ملاك استقامة الأمم، فاختيار الفرقان هنا لأنه اللفظ الذى لا يؤدى غيره مؤداه فى هذا الغرض وذلك من تمام الفصاحة.

والتقوى تشمل التوبة، فتكفير السيئات يصح أن يكون المراد به تكفير السيئات الفارطة التى تعقبها التقوى، ومفعول (يغفر لكم) محذوف وهو ما يستحق الغفران وذلك هو الذنب، ويتعين أن يحمل على نوع من الذنوب. وهو الصغائر التى عبر عنها باللمم، ويجوز العكس بأن يراد بالسيئات الصغائر وبالمغفرة مغفرة الكبائر بالتوبة المعقبة لها، وقيل التكفير الستر فى الدينا والغفران عدم المؤاخذة بها فى الآخرة، والحاصل أن الاجمال مقصود للحث على التقوى وتحقق فائدتها والتعريف والتحذير من التفريط فيها، فلا يحصل التكفير ولا المغفرة بأى احتمال.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ تذييل وتكميل وهو كناية عن حصول منافع أخرى لهم من جزاء التقوى(١).

**فى تأييد الله لرسوله ﷺ:**

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾: كان الكفار يتآمرون يحاولون الخديعة والاحتيال للكيد برسول الله ﷺ.

والمقصود بقوله تعالى: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ فقال ابن قتيبة: معناه: ليحبسوك، يقال فلان مثبت وجعا: إذا لم يقدر على الحركة وللمفسرين فيه قولان:

أحدهما: ليثبتوك فى الوثاق قاله ابن عباس، والحسن فى آخرين.

الثانى: ليثبتوك فى الحبس، قاله عطاء، والسدى فى آخرين(٢).

هذا وقد قال الإمام الألوسى (وكل الأقوال ترجع إلى أصل واحد وهو جعله ﷺ ثابتاً فى مكانه أعم من أن يكون ذلك بالربط أو الحبس أو الاثخان بالجراح حتى لا يقدر على الحركة)(٣).

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ المراد إنهاء وجود الرسول ﷺ بينهم سواء بالقتل أو الإخراج من مكة.

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾: أى يرد مكرهم ويجعل وخامته عليهم

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

(٢) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

(٣) تفسير الألوسى.

أو يجازيهم عليه أو يعاملهم معاملة الماكرين وذلك بأن اخرجهم إلى بدر وقلل المسلمين فى أعينهم حتى حملوا عليهم فلقوا منهم ما يشيب منه الوليد، ففى الكلام استعارة تبعية أو مجاز مرسل أو استعارة تمثيلية[١].

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ : والمكر من الله هو التدبير بحيث يكون جزاؤهم العذاب فى الدنيا والأخرة.

**مناسبة الآية لما قبلها:**

يجوز أن يكون عطف قصة من قصص تأييد الله ورسوله ﷺ ففى هذه الحالة تكون (إذ) متعلقة بفعل محذوف تقديره (واذكر إذ يمكر بك الذين كفروا).

ويجوز أن تكون عطفاً على قول الله تعالى ﴿ إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض ﴾ فهو متعلق بفعل اذكروا من قوله ﴿ واذكروا إذا أنتم قليل ﴾ فإن المكر بالرسول عليه الصلاة والسلام مكر بالمسلمين ويكون ما بينهما اعتراضاً، فهذا تعداد لنعم النصر، التى أنعم الله بها على رسوله ﷺ والمؤمنين فى أحوال ما كان يظن الناس أن سيجدوا منها مخلصاً، وهذه نعمة خاصة بالنبى ﷺ، والانعام بحياته وسلامته نعمة تشمل المسلمين كلهم، وهذا تذكير بأيام مقامهم بمكة، وما لاقاه المسلمون عموماً وما لاقاه النبى ﷺ خصوصاً وأن سلامة النبى ﷺ سلامة لأمته.

**فى ذكر سبب نزول للآية:**

فى بعض الروايات أن الآيات من قول الله تعالى ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ

---

(١) المصدر السابق.

الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ.. إلى قوله تعالى.. وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ من سورة الأنفال مكية.

ولعل الذى دعا أصحاب هذه الروايات إلى القول بمكية هذه الآيات أنها تتحدث عن أمور كانت فى مكة قبل الهجرة.. ولكن هذا ليس بسبب.. فإن هناك كثيراً من الآيات المدنية تتحدث عن أمور كانت فى مكة قبل الهجرة، وفى هذه السورة نفسها آية: ٢٦ قبل هذه الآيات تتحدث عن مثل هذا الشأن.

كما أن الآية: ٣٦ وهى الأخيرة من تلك الآيات تتحدث عن أمر كان بعد بدر خاص بانفاق المشركين أموالهم لغزوة أحد.

والروايات التى تذكر أن هذه الآيات مكية ذكرت فى سبب النزول مناسبة هى محل اعتراض[١]، فقد جاء فيها:

وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج: قال عطاء: سمعت عبيد بن عمير يقول: لما ائتمروا بالنبى ﷺ ليثبتوه أو يقتلوه أو يخرجوه، قال له عمه أبو طالب: هل تدرى ما ائتمروا بك؟

قال: (يريدون أن يسجنونى أو يقتلونى أو يخرجونى).

فقال: من أخبرك بهذا؟

قال: (ربى).

قال: نعم الرب ربك استوصى به خيراً.

قال: (أنا استوصى به، بل هو يستوصى بى).

وقد علق ابن كثير على هذه الرواية ورواية أخرى بنفس المعنى عن

---

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب.

أبو جعفر بن جرير بسنده عن المطلب بن أبى وداعة وتزيد على الرواية السابقة بقول الراوى: فنزلت ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ الآية يعلق ابن كثير بقوله:

وذكر أبى طالب فى هذا غريب جداً، بل منكر، لأن الآية مدنية، ثم أن هذه القصة واجتماع قريش على هذا الائتمار والمشاورة على الإثبات أو النفى أو القتل، إنما كانت ليلة الهجرة سواء، وكان ذلك بعد موت أبى طالب بنحو من ثلاث سنين لما تمكنوا منه واجترؤوا عليه بسبب موت عمه أبى طالب الذى كان يحوطه وينصره ويقوم بأعبائه(١).

وقد ذكر ابن اسحاق، عن عبدالله بن أبى نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس - وعنه كذلك من طريق آخر - حديثاً طويلاً عن تبييت قريش ومكرهم هذا، جاء فى نهايته قوله:

(وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وأنزل عليه - بعد قدومه المدينة - (الأنفال) يذكره نعمه عليه، وبلاءه عنده: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾.

وهذه الرواية عن ابن عباس - رضى الله عنهما - هى التى تتفق مع السياق القرآنى قبل هذه الآيات وبعدها، من تذكير الله سبحانه لنبيهﷺ وللمؤمنين بما أسلف إليهم من فضله، فى معرض تحريضهم على الجهاد فى سبيل الله والاستجابة لما يدعوهم إليه منه والثبات يوم الزحف.. إلى آخر ما تعالجه السورة من هذا الأمر كما سنبين(٢).

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب.

**المعنى التفصيلى للآية:**

لقد جمع الإمام ابن كثير فى تفسيره للقرآن العظيم مجموع الروايات التى تفسر الآية تفسيراً سليماً على النحو الذى سار عليه الأمر فى قصة الهجرة وهذه الروايات مأخوذة من كتب السيرة المختلفة وكتب السنة المباركة ولعلنا بذكر أهمها نكون قد بينا الوضع الحقيقى الذى كانت عليه هجرة الرسول ﷺ.

روى ابن إسحاق صاحب المغازى عن عبدالله بن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: وحدثنى الكلبى عن باذان مولى أم هانئ عن ابن عباس أن نفراً من قريش من أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة فاعترضهم ابليس فى صورة شيخ جليل فلما رأوه قالوا له: من أنت؟

قال: شيخ من أهل نجد، سمعت أنكم اجتمعتم فأردت أن احضركم ولن يعدمكم رأيى ونصحى.

قالوا: أجل ادخل، فدخل معهم.

فقال: انظروا فى شأن هذا الرجل، والله ليوشكن أن يواتيكم فى أمركم بأمره.

فقال قائل منهم: احبسوه فى وثاق ثم تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء زهير والنابغة إنما هو كأحدهم.

قال: فصرخ عدو الله الشيخ النجدى فقال: والله ما هذا لكم برأى والله ليخرجنه ربه من محبسه إلى أصحابه فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم فيمنعوه منكم، فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم.

قالوا: صدق الشيخ فانظروا فى غير هذا.

قال قائل منهم: أخرجوه من بين أظهركم فتستريحوا منه فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع وأين وقع إذا غاب عنكم اذاه واسترحتم وكان أمره فى غيركم.

فقال الشيخ النجدى: والله ما هذا لكم برأى، ألم تروا حلاوة قوله وطلاقة لسانه. وأخذ القلوب ما تسمع من حديثه؟ والله لئن فعلتم، ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه، ثم ليأتين إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشرافكم.

قالوا: صدق والله فانظروا رأياً غير هذا.

قال: فقال أبو جهل، لعنه الله: والله لأشيرن عليكم برأى ما أراكم أبصرتموه بعد، لا أرى غيره.

قالوا : وما هو؟

قال: تأخذون من كل قبيلة غلاماً شاباً وسيطاً نهداً، ثم يعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه فى القبائل كلها، فما أظن هذا الحى من بنى هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك، قبلوا العقل واسترحنا وقطعنا عنا أذاه.

قال: فقال الشيخ النجدى: هذا والله الرأى، القول ما قال الفتى، لا أرى غيره.

قال: فتفرقوا على ذلك وهم مجمعون له، فأتى جبريل النبى ﷺ فأمره أن لا يبيت فى مضجعه الذى كان يبيت فيه وأخبره بمكر القوم فلم يبت رسول الله ﷺ فى بيته تلك الليلة وأذن الله له عند ذلك بالخروج وأنزل عليه بعد قدومه المدينة الأنفال يذكر نعمه عليه وبلاءه عنده

﴿ وَإِذْ يمْكُرُ بِكَ الَّذينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِين ﴾ وانزل فى قوله تربصوا به ريب المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾ فكان ذلك يسمى يوم الزحمة للذى اجتمعوا عليه من الرأى، وعن السدى نحو اليوم هذا السياق، وأنزل الله فى إرادتهم اخراجه قوله تعالى: ﴿ وإن كادوا ليستفزونك من ا لأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون إلا قليلا ﴾ وكذا روى العوفى عن ابن عباس، وروى مجاهد وعروة بن الزبير وموسى بن عقبة وقتادة ومقسم وغير واحد نحو ذلك.

وقال يونس بن بكير عن ابن اسحاق:

ما أقام رسول الله ﷺ ينتظر أمر الله حتى إذا اجتمعت قريش فمكرت به وأرادوا به ما أرادوا أتاه جبريل عليه السلام فأمره ألا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب، فأمره أن يبيت على فراشه يتسجى ببرد له أخضر ففعل ثم خرج رسول الله ﷺ على القوم وهم على بابه وخرج معه بحفنة من تراب فجعل يذروها على رؤسهم، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه ﷺ وهو يقرأ ﴿ يسٓ ۝ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ - إلى قوله - فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ وقال الحافظ أبو بكر البيهقى: روى عن عكرمة ما يؤكد ذلك.

وقال الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ﴾ الآية قال: تشاورت قريش ليلة بمكة، فقال: بعضهم، إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق يريدون النبى ﷺ، وقال بعضهم بل أقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك فبات على فراش رسول الله ﷺ، وخرج النبى ﷺ حتى لحق بالغار وبات المشركين يحرسون عليا

يحسبونه ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه، فلما رأوا عليا رد الله تعالى مكرهم فقالوا: أين صاحبك هذا؟ فقال: لا أدرى، فاقتصوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا فى الجبل فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث فيه ثلاث ليال، وقال محمد بن إسحاق بسنده عن عروة بن الزبير فى قوله ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ أى فمكرت بهم بكيدى المتين حتى خلصتك منهم[1].

**فى عناد المشركين:**

**﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.**

**معانى المفردات:**

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا ﴾ : والمقصود من الآيات وهى جمع آية آيات القرآن الكريم.

﴿ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا ﴾ فعند ما تتلى عليهم آيات الله تعالى يدعون استخفافاً بها أنهم يستطيعون الآتيان بمثلها وأنها لا تزيد عن كونها ادعاءات من الرسول ﷺ.

﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ جمع أسطورة على ما قاله المبرد كأحدوثة وأحاديث ومعناه ما سطر وكتب.

---

(١) تفسير ابن كثير.

وفى القاموس: الأساطير الأحاديث لا نظام لها جمع اسطار واسطير وأسطور وبالهاء فى الكل، وأصل السطر الصف من الشيء كالكتاب والشجر وغيره وجمعه اسطر وسطور وأسطار وجمع الجمع أساطير ويحرك فى الكل.

وقال بعضهم: إن جمع سطر بالسكون أسطر وسطور وجمع سطر أسطار وأساطير، وهو مخالف لما فى القاموس.

والمعنى العام لأساطير: الأباطيل.

والكلام على التشبيه، وأرادوا ماهذا إلا كقصص الأولين وحكاياتهم التى سطروها وليس كلام الله تعالى، وكأنه بيان لوجه قدرتهم على قول مثله لو شاءوا[1].

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: قائل هذا النضر بن الحارث قال به مجاهد وابن جبير وأنس بن مالك أن قائله أبوجهل[2] وهو دعاء غريب يوضح مدى العناد الجامح لدى المشركين حيث يعلمون الحق ومع ذلك يدعون الله أن كان هذا هو الحق من عنده أن يمطر عليهم حجارة من السماء أو يأتيهم بعذاب أليم بدلاً من أن يطلبوا الهداية والتوفيق.

وقال الزمخشرى: معنى كلامهم جحود إن كان هذا هو الحق فعقابنا على إنكاره ولكنه ليس بحق فلا نستوجب عقاباً، وليس مرادهم الدعاء على أنفسهم، إنما مرادهم نفى العقوبة عن أنفسهم[3].

---

(١) تفسير الألوسى.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) تفسير الزمخشرى وسيتضح الأمر فى المعنى التفصيلى وسبب النزول.

﴿ وما كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأَنتَ فِيهِمْ﴾ إكراماً لرسول الله ﷺ .

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أى لو آمنوا واستغفروا فإن الاستغفار أمان من العذاب[١] .

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

كان من المناسب بعد أن تحدث الله سبحانه وتعالى خلال السورة الكريمة عن الكفار وظلمهم للرسول ﷺ بقوله تعالى ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ وقوله ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقوله ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ وقوله ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فكان من المناسب الانتقال إلى ذكر بهتان آخر من كفرهم وحججهم وهو ادعاؤهم بأنهم يستطيعون الاتيان بمثل آيات الله وأنها أساطير الأولين ثم يبلغ بهم العناد الجامح أن يدعوا على أنفسهم بالعذاب إن لم يكونوا على حق مع أنهم يعلمون ذلك ثم كان الأليق بالمقام بعد ذلك أن يبين الله سبحانه وتعالى لهم أنه يكن ليعذبهم والرسول ﷺ بينهم أو وهم يستغفرون بعد أيمانهم وهذا من الله دلالة لهم على شدة إكرامه للرسول ﷺ وأيضاً غفرانه لمن يلجأ إليه.

**سبب النزول:**

فى سبب نزول الآية الأولى: يذكر الإمام ابن كثير أنها نزلت فى النضر بن الحارث كما قد نص على ذلك سعيد بن جبير والسدى وابن جريج وغيرهم، فإنه لعنه الله كان قد ذهب إلى بلاد فارس وتعلم من أخبار ملوكهم رستم واسفنديار، ولما قدم وجد رسول الله ﷺ قد بعثه الله

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى، ومختار الصحاح.

وهو يتلو على الناس القرآن فكان عليه الصلاة والسلام إذا قام من مجلس جلس فيه النضر فحدثهم من أخبار أولئك ثم يقول بالله أينا أحسن قصصاً أنا أو محمد؟ ولهذا لما أمكن الله تعالى منه يوم بدر ووقع فى الأسارى أمر رسول الله ﷺ أن تضرب رقبته صبراً بين يديه ففعل ذلك، ولله الحمد، وكان الذى أسره المقداد بن الأسود رضى الله عنه(١).

أما سبب نزول الآية الثانية: وهى قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ - الآية﴾ فينقل الألوسى عن مجاهد وسعيد بن جبير أن قائلها هو النضر بن الحارث ذلك أنه لما قال أولاً ما قال قال له النبى ﷺ: ويلك أنه كلام الله تعالى فقال ذلك(٢).

وأخرج البخارى والبيهقى فى الدلائل عن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه أبو جهل بن هشام.

وأخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان، ومحمد بن قيس ان قريشاً قال بعضها لبعض: (أكرم الله تعالى محمد ﷺ من بيننا اللهم إن كان هذا هو الحق إلخ).

والجمع بين الروايتين الأولى والثانية فى سبب النزول للآية الثانية ممكن فلا يوجد ما يمنع أن يتعدد القول من المشركين سواء من النضر ابن الحارث أو أبو جهل بل أن ذكر الرواية الثالثة يؤكد هذا المعنى على أساس أن غيرهما قد تبعهما بالإضافة إلى ورود صيغة الجمع فى الآيتين الأولى والثانية، أو يمكن اعتبار صيغة الجمع هذه باعتبار المذكورة فى الآيتين بحكم مكانة كان من النضر بن الحارث وأبو جهل فى قومه

---

(١) تفسير بن كثير.
(٢) تفسير الألوسى.

بمثابة أنهما ممن يتبع ويسترشد به هذا على فرض أنه لم يقل ذلك غير النضر بن الحارث وأبو جهل.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

لقد تتابع مكر الكفار برسول الله ﷺ ومحاولتهم تحطيم دعوته خاصة عندما تحداهم بمعجزة القرآن وطلب إليهم أن يأتوا بأقصر سورة من مثله بل لقد وصل التحدى بإثبات عجزهم وبيان كذبهم، ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾(١)، ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾(٢).

ورغم هذا التحدى إلا لاهى المعجز استمروا فى إعطاء الوهم والكذب بأن هذا منهم ترفع عن معارضته، ولعل تحيزهم وتآمرهم فى ايجاد معذرة يعتذرون بها عن القرآن ووقوفهم فى وجه تحديه هو ما قاله الوليد بن المغيرة فى شأن القرآن ومن قولهم أيضاً بالإضافة إلى ما سبق.

﴿ **لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ** ﴾ فيعتبرون ما يقصه على الناس النضر بن الحارث معادل لما ورد فى القرآن الكريم وكان النضر بن الحارث هذا: من بنى عبد الدار، كان رجلاً من مردة قريش ومن المستهزئين، وكان كثير الأسفار إلى الحيرة وإلى أطراف بلاد العجم فى تجارته، فكان يلقى بالحيرة ناساً من العباد (بتخفيف الباء اسم

---

(١) سورة يونس آية: ٣٨.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٣، ٢٤.

طائفة من النصارى) فيحدثونه من أخبار الانجيل، ويلقى من العرب من ينقل أسطورة حروب رستم واسفندياذ من ملوك الفرس فى قصصهم الخرافى.

وإنما كانت تلك الأخبار تترجم للعرب باللسان، ويستظهرها قصاصهم وأصحاب النوادر منهم ولم يذكر أحد أن تلك الأخبار كانت مكتوبة بالعربية، فيما أحسب، إلا ما وقع فى الكشاف أن النضر بن الحارث جاء بنسخة من خبر (رستم) و(اسفندياذ) ولا يبعد أن يكون بعض تلك الأخبار مكتوباً بالعربية كتبها القصاصون من أهل الحيرة والأنبار تذكرة لأنفسهم، وإنما هى أخبار لا حكمة فيها ولا موعظة، وقد أطال الفردوسى فى كتاب (الشاهنامة) تطويلاً مملاً على عادة أهل القصص[١].

ويتطور الأمر بالنسبة للمشركين فوصل بهم الجهل والعناد والعتق إن فعلوا مثل قوم شعيب فى قوله ﴿**فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين**﴾ فقالوا: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) فقد أرادوا بالإضافة إلى إقناعهم أنفسهم ولو كذباً بأن هذا القرآن ليس بحق من لدن الله تعالى أن يقنعوا قومهم أيضاً بذلك: فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقاً من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أن القرآن ليس من عند الله.

وفى رأى آخر لصاحب التحرير والتنوير: يقوم على اعتبار أن القوم المشركين كانوا جازمين بعدم حقية القرآن وقد أخذ ذلك من أنه اعتبر أن

---

(١) تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

كلامهم جار مجرى القسم وذلك أنهم يقسمون بطريقة الدعاء على أنفسهم إذا كان ما حصل فى الوجود على خلاف ما يحكونه أو يعتقدونه، وهم يحسبون أن دعوة المرء على نفسه مستجابة وهذه طريقة شهيرة فى كلامهم قال النابغة:

**ما أن أتيت بشىء أنت تكرهـــه**

**اذن فلا رفعت سوطى إلى يدى**

فمعنى كلامهم على هذا: أن هذا القرآن ليس حقاً من عندك فإن كان حقاً فأصبنا بالعذاب وهذا يقتضى أنهم قد جزموا بأنه ليس بحق وليس الشرط على ظاهره حتى يفيد ترددهم فى كونه حقاً ولكنه كناية عن اليمين، وقد كانوا لجهلهم وضلالهم يحسبون أن الله يتصدى لمخاطرتهم، فإذا سألوه أن يمطر عليهم حجارة إن كان القرآن حقاً منه، أمطر عليهم الحجارة وأرادوا أن يظهروا لقومهم صحة جزمهم بعدم حقية القرآن فأعلنوا الدعاء على أنفسهم بأن يصيبهم عذاب عاجل إن كان القرآن حقاً من الله ليستدلوا بعدم نزول العذاب على أن القرآن ليس من عند الله، وذلك فى معنى القسم كما علمت(١).

ومن طريف ما يروى ان ابن عباس رضى الله عنهما لقيه رجل من اليهود، فقال اليهودى: ممن أنت؟

قال: من قريش.

فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿ **اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك** ﴾ الآية فهلاعليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له! إن هؤلاء القوم يجهلون.

---

(١) المصدر السابق.

قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيلى، من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون، وأنجى موسى وقومه، حتى قالوا: ﴿ اجعل لنا الها كما لهم آلهة ﴾ فقال لهم موسى: ﴿ انكم قوم تجهلون ﴾ فأطرف اليهودى مفحماً[١].

ثم بين الله تعالى مدى كرامة رسول الله ﷺ عنده بأن جعل وجود الرسول ﷺ بين قومه دافعاً للعذاب عنهم وتأخيره مع كونهم مستحقين لهذا العذاب بعنادهم لله ورسوله ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾.

وفى توجيه الخطاب بهذا إلى النبى ﷺ واجتلاب ضمير خطابه بقوله: ﴿ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ لطيفة من التكرمة إذ لم يقل وما كان الله ليعذهبم وفيهم رسوله، كما قال ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تتلي عليكم آيات الله وفيكم رسوله ﴾[٢].

ثم تبين الآية أن الغفران يكون سبباً فى درء العذاب ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

يقول الفخر الرازى (وفى تفسيره وجوه: الأول: وما كان الله معذب الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون فاللفظ وإن كان عاماً إلا أن المراد بعضهم كما يقال: قتل أهل المحلة رجلاً، والمراد بعضهم، الثانى: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفى علم الله أنه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه)[٣].

---

(١) تفسير القرطبين.
(٢) تفسير التحرير والتنوير.
(٣) تفسير الفخر الرازى.

روى ابن أبى حاتم بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما: ان ابن عباس قال: إن الله جعل فى هذا الأمة أمانين لا يزالون معصومين مجارين من قوارع العذاب ما داما بين أظهرهم، فأما قبضه الله إليه، وأما بقى فيكم، قوله ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾.

وروى الترمذى بسنده عن أبى موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (أنزل الله على أمانين لأمتى) ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة)[١].

**فى استحقاق المشركين للعذاب:**

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾.

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

**معنى المفردات:**

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾:

---

(١) رواه الترمذى.

والمعنى أنهم أى شىء يمنع من عذابهم وهم يمنعون فى نفس الوقت المسلمين من المسجد الحرام، والجملة فى موضع الحال وذلك من الموجب لعذابهم.

﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُه إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِن أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُون ﴾: فى محل نصب على أنها حال من فاعل (يصدون) كالردّ على المشركين فى ادعائهم أنهم أهل الحرم وأمره مفوض إليهم فأظهر الله تعالى لهم أن أولياء الحرم لا يكونون إلا فى عداد المتقين للكفر والمعاصى ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك وليس معنى ذلك أن الجميع لا يعرفون فإن الحكم على الأكثرين بالجهل يفيد أن الأقلين يعلمون ولكنهم يعاندون.

﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ المكاء التصغير بالفم، والتصدية التصفيق باليد.

﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُون ﴾ : الباء فى قوله ﴿ بِمَا كُنتُمْ ﴾ للسببية والفاء فى قوله ﴿ فَذُوقُوا ﴾ إذا أريد بالعذاب عذاب الآخرة تكون للسببية كالباء، وإذا أريد به عذاب الدنيا تكون للتعقيب.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّه ﴾: بيان لعبادتهم المالية بعد عبادتهم البدنية والمراد للكفار هدم الإسلام وهزيمة اتباع رسول الله ﷺ فينفقون الأموال لهذا الغرض

﴿ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾ : أى يتأسفون ويتحسرون على إضاعة المال من غير فائدة أو يكون هذا الأسف فى الآخرة.

﴿ ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ : اخبار بالغيب بأنهم سيغلبون فى مواطن أخرى أيضاً.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾: أى من أصر على الكفر من أعداء الإسلام يساقون إلى جهنم.

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ : أى يفرق الله سبحانه وتعالى بين الكافر والمؤمن أو يظهر الفساد من الصلاح وقيل: الخبيث ما أنفقه الكفار، والطيب ما أنفقه المؤمنون.

﴿ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا ﴾ : أى يجعل بعضه فوق بعض وضمه من قولهم (سحاب مركوم) ويوصف به الرمل والجيش أيضاً، والمراد بالخبيث أما الكافر فيكون المراد بذلك فرط ازدحامهم فى الحشر، وأما الفساد فالمراد أنه سبحانه يضم كل صنف بعضه إلى بعض.

﴿ فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ ﴾: كله وجعل الفساد فيها بجعل أصحابه فيها، وأما المال المنفق فى عداوة الرسول ﷺ وجعله فى جهنم لتكوى به جباههم وجنوبهم[١].

## مناسبة الآيات لما قبلها:

فى الآيات السابقة بين الله تعالى أن الكفار لا يعذبون بسبب وجود آمانين ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ وفى هذه الآيات يوضح لنا سبحانه وتعالى أنهم مع وجود الأمان مستحقون للعذاب بسبب تصرفاتهم التى تدعوا إلى الإسراع بذلك العذاب وحيث أن سبب منعه أيضاً فى الأصل ليس إكراماً لهم فإن

---

(١) ينظر : التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى ـ تفسير الألوسى ـ تفسير القرطبى ـ مفردات القرآن للراغب.

سبحانه ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلاَّ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ... ﴾.

**فى سبب نزل آية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ :**

ذكر الواحدى فى سبب نزول الآية رواية عن مقاتل والكلبى أنها نزلت فى المطعمين يوم بدر، وكانوا اثنى عشر رجلاً: أبو جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس ونبيه ومنبه ابنا حجاج، وأبو البخترى بن هشام، والنضر بن الحارث، وحكيم بن حزام، وأبى خلف، وزمعة بن الأسود، والحارث بن عامر بن نوفل، والعباس بن عبدالمطلب، وكلهم من قريش، و كان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشرة جزور.

وروى الواحدى أيضاً عن سعيد بن جبير وابن أبزى أنها نزلت: فى أبى سفيان بن حرب استأجر يوم أحد ألفين من الأحابيش يقاتل بهم النبىﷺ سوى من استجاب لهم من العرب، وفيهم يقول كعب بن مالك:

**فجئنا إلى موج من البحر وسطهم**

**أحابيش منهم حاسر ومقنع**

**ثلاثة آلاف ونحن عصابة**

**ثلاثة مئين إن كثرنا فأربع**

وقال الحكم بن عتبة: أنفق أبو سفيان على المشركين يوم أحد أربعين أوقية فنزلت فيه الآية[1].

---

(١) أسباب النزول للواحدى.

وذكر ابن اسحاق (لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره، مشى عبدالله بن أبيى ربيعة، وعكرمة بن أبى جهل، وصفوان بن أمية فى رجال من قريش، ممن أصيب أباؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان، ومن كانت له فى تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يامعشر قريش، إن محمد قد وتركم، وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه، فعلنا ندرك منه ثأرنا ممن أصاب منا ففعلوا، ففيهم ـ كما ذكر لى بعض أهل العلم ـ أنزل الله تعالى قوله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾(١).

ونرى أنه لا مانع من شمول الآية للروايات المتعددة فى سبب النزول وأنها ليست خاصة بسبب معين بل أنها عامة تشمل كل كافر يستعد لحرب الإسلام بانفاق ماله للصد عن سبيله فيما مضى من الزمن وإلى قيام الساعة.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

يخبرنا الله تعالى أن أى شيء للمشركين فى انتفاء العذاب عنهم أى لا حظ لهم فى ذلك وهم معذبون لا محالة إذا زال المانع(٢).

ثم بين لنا سبحانه أنهم كيف لا يعذبون والصد عن المسجد الحرام جريمة عظيمة يستحق فاعلوه عذاب الدنيا قبل عذاب الآخرة لأنه يؤول إلى الصد عن التوحيد لأن ذلك المسجد بناه مؤسسه ليكون علماً على

---

(١) سيرة ابن هشام.
(٢) تفسير الألوسى.

توحيد الله ومأوى للموحدين، فصدهم المسلمين عنه، لأنهم آمنوا بإله واحد صرف له عن كونه علماً على التوحيد، إذ صار الموحدون معدودين غيرأهل لزيارته، فقد جعلوا مضادين له، فلزم أن يكون ذلك المسجد مضاد للتوحيد وأهله، ولذلك عقب بقوله: ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ ﴾ وهذا كقوله ﴿ ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ والظلم الشرك لقوله ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[١].

والصد الذى يقصدونه هو منعهم المسلمين المهاجرين من دخول الحرم فهم يصدون أولياء البيت الأحق به وفى ذلك يقول الزمخشرى: (كانوا يقولون: نحن ولاة البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء)[٢].

وقد أفادت الآية: أنهم استحقوا العذاب فنبهت على أن ما أصابهم يوم بدر من القتل والأسر، هو من العذاب، ولكن الله قد رحم هذه الأمة تكرمة لنبيه ﷺ فلم يؤاخذ عامتهم بظلم الخاصة بل سلط على كل أحد من العذاب ما يجازى كفره وظلمه وإيذائه للنبى ﷺ والمسلمين[٣].

ثم يقول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أى حتى يصدوا المؤمنين عن المسجد الحرام فإنهم لشركهم غير مستحقين لتلك الولاية، يقول الإمام الألوسى:

والجملة فى موضع الحال من ضمير يصدون مبينة لكمال قبح ما صنعوا من الصد فإن مباشرتهم للصد عنه مع عدم استحقاقهم لولاية

---

(١) تفسير التحرير والتنوير.
(٢) تفسير الكشاف.
(٣) تفسير التحرير والتنوير.

أمره فى غاية القبح، وهذا رد لما كانوا يقولون: نحن ولاة البيت الحرام فنصد من نشاء وندخل من نشاء[١].

﴿ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ ﴾: وهذه الجملة تعيين لأوليائه الحق، وتقرير لمضمون ﴿ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ﴾، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أن لا ولاية لهم عليه وكأنه نبه سبحانه بذكر الأكثر على أن منهم من يعلم ذلك ولكن يجحده عناداً، وقد يراد بالأكثر لأن له حكمه فى كثير من الأحكام كما أن الأقل قد لا يعتبر فينزل منزل المعدوم[٢].

ثم يوضح الله تعالى كيفية عبادة المشركين ويجعلها كالدليل على عدم أهليتهم للولاية على المسجد الحرام ﴿ وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾. وهذه الاية معطوفة على جملة، ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ فمضمونها سبب ثان لاستحقاقهم العذاب، لأن من كان يفعل مثل هذا عند مسجد الله لم يكن من المتقين فان حقيقاً بسلب ولاية المسجد عنه فعطفت الجملة باعتبارها سبباً للعذاب.

لقد كانت صلاة الكفار بالبيت أنهم كانوا يصفقون ويصفرون ويضعون خدودهم بالأرض، فنزلت هذه الآية، قاله ابن عمر.

**أما المكاء، ففيه قولان:**

أحدهما: أنه الصفير، قاله ابن عمر وابن عباس، وابن جبير،

---

(١) تفسير الألوسى.

(٢) المصدر السابق.

وقتادة، وأبو عبيدة، والزجاج، وابن قتيبة، قال ابن فارس: يقال: مكا الطائر (يمكو) مكاء: إذا صفر، ويقال: مكيت يده (تمكى) مكى، مقصور، أى غلظت وخشنت، ويقال: تمكى: إذا توضأ. وأنشدوا:

**إنك والجور على سبيل**

**كالممكى بدم القتيل**

وسئل أبو سلمة بن عبدالرحمن عن المكاء فجمع كفيه، وجعل يصفر فيهما.

والثانى: أنه إدخال أصابعهم فى أفواههم يخلطون به وبالتصدية على محمد ﷺ صلاته، قاله مجاهد. قال ابن الأنبارى: أهل اللغة ينكرون أن يكون المكاء إدخال الأصابع فى الأفواه، وقالوا لا يكون إلا الصفير.

**وفى التصدية قولان:**

أحدهما: أنها التصفيق، قاله ابن عمر، وابن عباس، والحسن ومجاهد وقتادة، والجمهور قال ابن قتيبه: يقال صدى: إذا صفق بيديه، قال الراجز:

**ضنت بخد وجلت على خد**

**وأنا من غرو الهوى أصدى**[1]

الغرو: العجب، يقال لا غرو من كذا، أى: لا عجب.

الثانى: أن التصدية: صدهم الناس عن البيت الحرام، قاله سعيد ابن جبير.

وقال ابن زيد: هو صدهم عن سبيل الله ودينه، وزعم مقاتل أن النبى ﷺ كان إذا صلى فى المسجد الحرام، قام رجلان من المشركين من

(١) غريب القرآن لابن قتيبة وانظر ديوان بشار.

بنى عبدالدار عن يمينه فيصفران، ورجلان عن يساره فيصفقان، فتختلط على النبى ﷺ صلاته وقراءته، فقتلهم الله ببدر، فذلك قوله: ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ بتوحيد الله[١].

فإن قيل: كيف سمى المكاء والتصدية صلاة؟

فعنه: جوابان ذكرها ابن الأنبارى:

أحدهما: أنهم جعلوا ذلك مكان الصلاة، ومشهور فى كلام العرب أن يقول الرجل: زرت عبدالله، فجعل جفائى صلتى، أى أقام الجفاء مقام الصلة، قال الشاعر:

**قلت لـه: اطعمنى عميـم تمـرا**

**فـكان تمـرى كهـرة وزبـرا**

أى: أقام الصياح على مقام التمر.

الثانى: أن من كان المكاء والتصدية صلاته، فلا صلاة له، كما تقول العرب ما لفلان عيب إلا السخاء، يريدون: من السخاء عيبه فلا عيب له، قال الشاعر:

**فتى كملت خيـراته غير أنـه**

**جـواد فلا يبقى من المال باقيا**[٢]

ثم يكمل الله سبحانه وتعالى بيان جحود الكفار وعنادهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾:

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

(٢) المصدر السابق.

ومن الأمثلة على ذلك ما أنفقوه فى غزورة بدر فإن القرشيين جميعاً تحمسوا للخروج لحماية القافلة، فخرج الكبراء وحملوا الفقراء ومنهم من حمل عشرين رجلاً على عشرين بعيراً وتحمل بنفقتهم، ومنهم من حمل على عشرة أبعر، ومنهم من تبرع للحملة بخمسمائة دينار، ومنهم من تبرع بمائتين وأخرجت قريش ما كان عندها من سلاح ما بين سيوف ودروع كانت مختزنة فى خزانة دار الندوة وفرقوا ذلك[١].

وتجهز الناس وشغل بعضهم عن بعض، وكان الناس بين رجلين، أما خارج وأما باعث مكانه رجلاً[٢].

ولعل دراسة متأنية لأحوال المشركين فى عنادهم لرسول الله ﷺ تبين المدى البعيد الذى وصل إليه انفاقهم للأموال ثم كانت حسرة عليهم بعد ذلك وسنذكر مثال على ذلك يوضح الآية توضيحاً لا لبس فيه وهو من آثار غزوة بدر فى نفس الوقت: جلس عمير بن وهب الجمحى مع صفوان بن أمية، بعد مصاب أهل بدر من قريش فى الحجر بيسير، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناء وهو بمكة، وكان ابنه، وهب بن عمير، فى أسارى بدر.

قال ابن هشام: أسره رفاعه بن رافع، أحد بنى زريق.

قال ابن إسحاق: حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال: فذكر أصحاب القليب ومصابهم فقال صفوان: (والله ما فى العيش بعدهم خير، قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دين على

---

(١) دراسات فى السيرة النبوية الدكتور حسين مؤنس.
(٢) مغازى الواقدى.

ليس له عندى قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لى قبلهم علة: (ابنى أسير فى أيديهم) فاغتنمها صفوان وقال: (على دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا لا يسعنى شىء ويعجز عنهم).

فقال له عمير: (فاكتم شأنى وشأنك)، قال: (أفعل).

قال: ثم أمر عمير بسيفه، فشحذ له، وسم ثم انطلق حتى قدم المدينة، فبينما عمر بن الخطاب، فى نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم، إذ نظر إلى عمير بن وهب، حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشر، وهو الذى حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر.

ثم دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: (يانبى الله، هذا عدو الله عمير بن وهب، قد جاء متوشحاً سيفه).

قال: (فأدخله على)، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: أدخلوه على رسول الله ﷺ فأجلسوه عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون، ثم دخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال: أرسله ياعمر، أدن يا عمير فدنا ثم قال: أنعموا صباحا، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: (قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام: تحية أهل الجنة، فقال: أما والله يا محمد، إن كنت بها لحديث عهد، قال:

(فما جاء بك يا عمير)؟

قال: (جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فأحسنوا فيه).

قال: (فما بال السيف فى عنقك)؟

قال: (قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً).

قال: (أصدقنى، ما الذى جئت له)؟

قال: (ما جئت إلا لذلك).

قال: (جل قعدت أنت وصفوان بن أمية، فى الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين على، وعيال عندى، لخرجت حتى أقتل محمدا، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له، والله حائل بينك وبين ذلك).

قال عمير: (أشهد أنك رسول الله، قد كنا يارسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحى، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إنى لا أعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذى هدانى للإسلام وساقنى هذا المساق). ثم شهد شهادة الحق.

فقال رسول الله ﷺ: فقهوا أخاكم فى دينه، وأقرئوه القرآن وأطلقوا له أسيره ففعلوا.

ثم قال: (يارسول الله، إنى كنت جاهداً على اطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لى، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم)؟

قال: فأذن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية، حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام

تنسيكم وقعة بدر.

وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف ألا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

قال ابن اسحاق: فلما قدم عمير مكة أقام بها، يدعو إلى الإسلام، ويؤذى من خالفه أذى شديداً، فأسلم على ديه ناس كثير[١].

يقول الأستاذ سيد قطب (إن هذا المال الذى ينفق يؤلب الباطل ويملى له فى العدوان، فيقابله الحق بالكفاح والجهاد، وبالحركة للقضاء على قدرة الباطل على الحركة، وفى هذا الاحتكاك المرير تنكشف الطباع، ويتميز الحق من الباطل، كما يتميز أهل الحق من أهل الباطل ـ حتى بين الصفوف التى تقف ابتداء تحت راية الحق قبل التجربة والابتلاء ـ ويظهر الصامدون المثابرون الذين يستحقون نصر الله، لأنهم أهل لحمل أماناته والقيام عليها، وعدم التفريط فيها تحت ضغط الفتنة والمحنة.. عند ذلك يجمع الله الخبيث، فيلقى به فى جهنم وتلك غاية الخسران[٢].

﴿ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

وبالتأكيد أنه ماجعلت المحن والابتلاءات التى يختبر الله بها عباده، إلا للتمييز بين الحق والباطل فيظهر الضلال بصوره المتنوعة المختلفة كما وصف الله تعالى بها أعداء الإسلام فى الآيات السابقة ويجمع هذا الخبيث بعضه فوق بعض ويكون وقوداً لنار جهنم بالإضافة

---

(١) الجهاد فى الإسلام للإمام عبدالحليم محمود.

(٢) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب.

إلى عذابهم فى الدنيا ويكفى أهل الحق من الله تعالى عليهم بقوله: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾(١).

## فى معاملة الكفار:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾.

## معانى المفردات:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾: أمر النبى ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى.

﴿ إِن يَنتَهُوا ﴾ : عما عم فيه من العناد والكفر ويدخلوا فى دين الله وطاعة رسول الله ﷺ.

﴿ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴾ : أى من استمرارهم على ما هم فيه من العناد أن ننتقم منهم كما فعلنا ذلك من قبل مع الأولين.

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾: أى قاتلوهم حتى لا يكون هناك كفر والأمر ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ ﴾ عطف على الأمر السابق فى الآية الماضية ﴿ قُل ﴾ وقد أفرد الله تعالى الخطاب فى الأمر الأول وعمم هنا لأن الأولى فيها دعوة وهذه وظيفة النبى ﷺ أما الأمر الثانى

---

(١) آل عمران آية: ١٦٤.

فهو ترغيب فى قتال المشركين موجه إلى المسلمين.

﴿ فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾: لا يخفى عليه تعالى ما وقع منهم من الانتهاء.

﴿ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾: أى إذا تولى الكفار عما أمروا به من الانتهاء ﴿ فَاعْلَمُوا ﴾ أيها المؤمنون أن الله ناصركم، وهو المولى الذى لا يضيع من تولاه.

## مناسبة الآيات لما قبلها:

فى الآيات السابقة وضح الله تعالى حال الكفار المستمرين على شركهم به سبحانه وتعالى وكيف أنهم بلغ به الكفر حد الصد عن بيت الله الحرام ومحاولة هدم الإسلام بقتال نبيه ﷺ وصحابته المخلصين فكان من المناسب أن تذكر الآية التى بعد ذلك على معنى (خاطبهم بذلك) وذلك على عادة القرآن فى تبليغه من الجمع بين الترغيب والترهيب وقرىء ﴿ نغفر لهم ﴾ على أن الضمير لله عز وجل.

## المعنى التفصيلى العام للآيات:

جرى قول الله تعالى ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ ﴾ على عادة القرآن الكريم فى تبليغه من أنه يجعل الترهيب يعقبه الترغيب ويعقب الوعيد بالوعد والعكس، فأنذرهم بما أنذر وتوعدهم بما توعد ثم ذكرهم بأنهم يمكنهم التدارك باصلاح ما فعلوه من فساد فأمر الله نبيه ﷺ بأن يقول لهم ما يفتح لهم باب الإنابة.

يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: والجملة استئناف يصح جعله بيانياً لأن ما تقدم بين يديه من الوعيد وقلة الاكتراث بشأنهم، وذكر خيبة

مساعيهم، مما يثير فى أنفس بعضهم والسامعين أن يتساءلوا عما إذا بقى لهم مخلص ينجيهم من ورطتهم التى ارتبقوا فيها، فأمر الرسول بأن يقول لهم هذا المقال ليرميهم أن باب التوبة مفتوح، والاقلاع فى مكنتهم[١].

وفى المراد بالآية قولان:

أحدهما: أن ينتهوا عن المحاربة يغفر لهم ما قد سلف من حربهم فلا يؤاخذون به، وإن يعودوا إلى المحاربة، فقد مضت سنة الأولين فى نصر الله أولياءه، وقيل: فى قتل من قتل يوم بدر وأسر.

الثانى: أن ينتهوا عن الكفر، يغفر لهم ما قد سلف من الإثم، وأن يعودوا إليه، فقد مضت سنة الأولين من الأمم السالفة حتى أخذوا بالعذاب المستأصل، قال يحى بن معاذ فى هذه الآية: إن توحيداً لم يعجز عن هدم ما قبله من كفر، لا يعجز عن هدم ما بعده من ذنب[٢].

عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قلنا يارسول الله، أنؤاخذ بما عملنا فى الجاهلية؟

قال: (من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر)[٣].

ومن حديث عمرو بن العاص رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله)[٤].

واستنبط أئمتنا من هذه الآية أحكاماً للأفعال والتبعات التى قد

---

(١) التحرير والتنوير.

(٢) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

تصدر من الكافر فى حال كفره فإذا هو أسلم قبل أن يؤاخذ بها هل يسقط عنه إسلامه التبعات بها:

فروى ابن العربى فى الأحكام أن ابن القاسم، وأشهب، وابن وهب، رووا عن مالك فى هذه الآية أن من طلق فى الشرك ثم أسلم فلا طلاق عليه، ومن حلف يميناً ثم أسلم فلا حنث عليه فيها.

وروى عن مالك: إنما يعنى عز وجل ما قد مضى قبل الإسلام من مال أو دم أو شيء، قال ابن العربى وهو الصواب لعموم قوله ﴿ إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ وأن ابن القاسم وابن وهب، رويا عن مالك أن الكافر إذا افترى على مسلم أو سرق ثم أسلم يقام عليه الحد، ولو زنى ثم أسلم أو اغتصب مسلمة ثم أسلم لسقط عنه الحد تفرقة بين ما كان حقاً لله محضاً، وما كان فيه حق للناس.

وذكر القرطبى عن ابن المنذر: أنه حكى مثل ذلك عن الشافعى. وأنه احتج بهذه الآية، وفى المدونة تسقط عنه الحدود كلها.

وذكر فى الكشاف عن أبى حنيفة أن الحربى إذا أسلم لم تبق عليه تبعة، وأما الذمى فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقى عليه حقوق الآدميين. واحتج بهذه الآية، وفى كتب الحنفية لعلماء الحنفية بعض مخالفة لهذا. وحكوا فى المرتد إذا تاب وعاد إلى الإسلام أنه لا يلزمه قضاء ما فاته من الصلاة ولا غرم ما أصاب من جنايات ومتلفات.

وعن الشافعى يلزم ذلك كله وهو ما نسبه ابن العربى إلى الشافعى بخلاف ما نسبه إليه ابن المنذر كما تقدم وعن أبى حنيفه يسقط عنه كل حق هو لله ولا يسقط عنه حق الناس وحجة الجميع هذه الآية تعميماً

وتخصيصاً بمخصصات أخرى[١].

وثم يعقب الله سبحانه وتعالى بقوله ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾: ومما يشرح معنى الآية ما ذكره البخارى بسنده عن نافع عن ابن عمر أن رجلاً جاء فقال: يا أبا عبدالرحمن ألا تصنع ما ذكر الله فى كتابه ﴿ وإن طائفتين من المؤمنين اقتتلوا ﴾ الآية فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه؟ وان طائفتين من المؤمنين اقتتلوا الآية فما يمنعك أن لا تقاتل كما ذكر الله فى كتابه؟

فقال: يا ابن أخى أعير بهذه الآية، ولا أقاتل أحب إلى من أن أعير بالآية التى يقول الله عز وجل ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا ﴾ إلى آخر الآية.

قال: فإن الله تعالى يقول: ﴿ وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ﴾.

قال ابن عمر قد فعلنا على عهد رسول الله ﷺ إذ كان الإسلام قليلاً وكان الرجل يفتن فى دينه أما أن يقتلوه، وأما أن يوثقوه حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، فلما رأى أنه لا يوافقه فيما يريد قال: فما قولكم فى على وعثمان؟

قال ابن عمر: أما قولى فى على وعثمان، أما عثمان فكان الله قد عفا عنه، وكرهتم أن يعفوا الله عنه، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه وأشار بيده وهذه ابنته أو بنته حيث ترون.

وحدثنا أحمد بن يونس حدثنا زهير حدثنا بيان أن ابن وبزه حدثه

---

(١) يرجع للتفصيل فى ذلك: تفسير القرطبى ـ تفسير الكشاف ـ الجامع لأحكام القرآن للكيا الهراس ـ الجامع لأحكام القرآن لابن العربى ـ تفسير التحرير والتنوير ـ تفسير الألوسى.

قال حدثنى سعيد بن جبير قال: خرج علينا أو إلينا ابن عمر رضى الله عنهما فقال: كيف ترى فى قتال الفتنة؟

فقال: وهل ترى ما الفتنة؟ كان محمد ﷺ يقاتل المشركين وكان الدخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك[1].

وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿ وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ﴾ يعنى لا شرك، وكذا قال أبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حبان وزيد بن أسلم.

وقال محمد بن اسحاق: بلغنى عن الزهرى وعن عروة بن الزبير وغيره عن علمائنا، حتى لا تكون فتنة، حتى لا يفتن مسلم عن دينه.

وقوله: ﴿ ويكون الدين كله لله ﴾ فيهلك الكفار وتندثر لديانهم ولا يبقى على ظهر الأرض مشرك.

﴿ فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ﴾ أى تركوا الكفر والمعتقدات الباطلة فإن الله عليم بذلك، وهذا التعبير كناية عن أن الله تعالى سيجزيهم على إيمانهم حسن الجزاء فهو قادر على ذلك سبحانه وتعالى وأيضاً بإخبارهم أن الله يطلع على انتهائهم عن الكفر يعطيهم الاحساس واليقين بأن الله سوف يتولاهم برعايته.

ثم يعطى الله سبحانه وتعالى البيان عن الذى يتولى من الكفار بقوله تعالى: ﴿ وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم المولي ونعم النصير ﴾:

والتولى: الاعراض مثل قول الله تعالى ﴿ فإن توليتم فاعلموا إنما علي رسولنا البلاغ المبين ﴾.

والمولى الذى يتولى أمر غيره ويدفع عنه وفيه معنى النصر.

---

(١) رواه البخارى.

والمعنى وأن تولوا عن هاته الدعوة فالله مغن لكم عن ولائهم. أى لا يضركم توليهم فقوله ﴿ إن الله مولاكم ﴾ يؤذن بجواب محذوب تقديره: فلا تخافوا فإن الله مولاكم وهو يقدر لكم ما فيه نفعكم حتى لا تكون فتنة، وهذا كقول النبى ﷺ لمسيلمة الكذاب:

(ولئن توليت ليغفرنك الله).

وإنما الخسارة عليهم إذا حرموا السلامة والكرامة.

وافتتاح جملة جواب الشرط باعلموا لقصد الاهتمام بهذا الخبر وتحقيقه، أى لا تغفلوا عن ذلك.

وجملة ﴿ نعم المولي ونعم النصير ﴾ مستأنفة لأنها إنشاء ثناء على الله فكانت بمنزلة التزييل.

وعطف على ﴿ ونعم المولي ﴾ قوله ﴿ ونعم النصير ﴾ لما فى المولى من معنى النصر[١].

**فى حكم الغنائم:**

﴿ واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ ﴾ : لفظ عام يراد به الخصوص لأن الأموال التى تؤخذ من الكفار منها ما يخمس[٢]، ومنها ما لا يخمس

---

(١) التحرير والتنوير.

(٢) وهو ما أخذ على وجه الغلبة بعد القتال.

بل يكون جميعه لمن أخذه[١] ومنها ما يكون جميعه للإمام يأخذ منها حاجته، ويصرف سائره فى مصالح المسلمين[٢].

﴿ فَأَنَّ للَّه خُمُسَه ﴾ الآية اختلف فى قسم الخمس على هذه الأصناف فقال قوم يصرف على ستة أسهم سهم لله فى عمارة الكعبة، وسهم للنبى ﷺ فى مصالح المسلمين، وقيل للوالى بعده، وسهم لذوى القربى الذى لا تحل لهم الصدقة، وسهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل.

وقال الشافعى: على خمسة أسهم، ولا يجعل لله سهماً مختصاً، وإنما بدأ عنده بالله،لأن الكل ملكه.

وقال أبو حنيفة على ثلاثة أسهم: لليتمى، والمساكين وابن السبيل.

وقال مالك الخمس إلى اجتهاد الامام يأخذ منه كفايته ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين.

﴿ إن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ ﴾: راجع إلى ما تقدم والمعنى إن كنتم مؤمنين فاعلموا ما ذكر الله لكم من قسمة الخمس، واعملوا بحسب ذلك ولا تخالفوه.

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ : يعنى النبى ﷺ والذى انزل عليه القرآن والنصر.

﴿ يَوْمَ الْفُرْقَانُ ﴾ أى التفرقة بين الحق والباطل وهو يوم بدر[٣].

**مناسبة الآية لما قبلها:**

فى الآيات السابقة أمر الله سبحانه وتعالى المسلمين بقتال الكفار

---

(١) وهو ما أخذه من كان ببلاد الحرب من غير ايجاف، وما طرحه العدو خوف الغرق.

(٢) وهى الفئ الذى لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى.

ولما كان هذا الأمر للعموم فقد ناسب أن يتلو الحكم فى تقسيم الغنائم التى يحصلون عليها من القتال حتى يدرأ الخلاف بين المسلمين ويمكن فى هذه الحالة أن نقول: إن هذه الآية انتقال لبيان ما أجمل من حكم الأنفال الذى ورد فى أول السورة، وناسب الانتقال إليه ما جرى من الأمر بقتال المشركين إن عادوا إلى قتال المسلمين، والجملة معطوفة على جملة ﴿ وقاتلوهم حتي لا تكون فتنة ﴾.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

فى معنى الغنيمة: الغنيمة فى اللغة: ما يناله الرجل أو الجماعة بسعى، ومن ذلك قول الشاعر:

**ولقد طوفت فى الآفاق حتى**

**رضيت من الغنيمة بالإياب**

والمغنم والغنيمة بمعنى، يقال غنم القوم غنماً، واعلم أن الاتفاق حاصل على أن المراد بقوله تعالى ﴿ **غنمتم من شيء** ﴾ مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر[1].

**فى الفرق بين الغنائم والأنفال:**

بناء على ما استعرضناه سابقاً فى أول السورة عن معنى الأنفال ووضحنا أنها تأتى بمعنى الغنيمة أيضاً تأسيساً على ما ورد فى سبب النزول وأقوال الصحابة والتابعين فإننا نرجح ذلك الرأى على رأى من قال إن الأنفال هى الفيء، وهو ما حصل عليه المسلمون بدون قتال بخلاف الغنيمة والرأى الآخر القائل بأن الأنفال هى الخمس الذى جعله الله لأهل الخمس فهى على ذلك بعض الغنيمة.

---

(١) تفسير القرطبى.

## هل هذه الآية نسخ لحكم الأنفال قبلها؟

وليس هذا نسخاً لحكم الأنفال المذكور أول السورة، بل هو بيان لاجمال قوله ﴿لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، وقال أبو عبيدة: أنها ناسخة وأن الله شرع ابتداء أن قسمة المغانم لرسوله - ﷺ - يريد أنها لاجتهاد الرسول بدون تعيين، ثم شرع التخميس. وذكروا: أن رسول الله لم يخمس مغانم بدر ثم خمس مغانم أخرى بعد بدر، أى بعد نزول آية سورة الأنفال، وفى حديث على: أن رسول الله ﷺ أعطاه شارفاً من الخمس يوم بدر، فاقتضت هذه الرواية أن مغانم بدر قد خمست(١).

## فى كيفية قسمة الغنائم الواردة فى الآية:

اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس على أقوال ستة:

القول الأول: قالت طائفة: يقسم الخمس على ستة فيجعل السدس للكعبة وهو الذى لله، والثانى لرسول الله، والثالث لذوى القربى والرابع لليتامى، والخامس للمساكين، والسادس لابن السبيل(٢).

القول الثانى: قاله الربيع وأبو العالية أيضاً: إنها تقسم الغنيمة على خمسة فيعزل منها سهم واحد ويقسم أربعة على الغانمين، ثم يضرب يده فى السهم الذى عزله فما قبضه من شىء جعله للكعبة. ثم يقسم بقية السهم الذى عزله على خمسة للرسول ومن بعده الآية.

القول الثالث: روى عن زين العابدين على بن الحسين رضى الله عنهما أنه قال: إن الخمس لنا.

فقيل له: إن الله يقول: ﴿وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

---

(١) التحرير والتنوير.
(٢) قاله أبو العالية تعلقاً بظاهر الآية.

فقال: يتامانا ومساكيننا وأبناء سبيلنا.

القول الرابع: قول الشافعى: إن الخمس يقسم على خمسة. وأن سهم الله وسهم رسوله واحد يصرف فى مصالح المؤمنين. والأربعة الأخماس على الأربعة الأصناف المذكورة فى الآية.

القول الخامس: قول أبى حنيفة: إنه يقسم على ثلاثة: اليتامى، والمساكين وابن السبيل. وقد ارتفع حكم قرابة رسول الله ﷺ بموته كما ارتفع حكم سهمه. قال: ويبدأ من الخمس باصلاح القناطر وبناء المساجد وأرزاق القضاه والجند. روى نحو هذا عن الشافعى.

القول السادس: قال مالك: هو موكول إلى نظر الإمام واجتهاده، فيأخذ منه من غير تقدير، ويعطى منه القرابة باجتهاد، ويصرف الباقى فى مصالح المسلمين[1].

وقوله تعالى ﴿وَلِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ اختلف فيه العلماء على ثلاثة أقوال:

١ - قريش كلها، قاله بعض السلف، لأن النبى ﷺ لما صعد الصفا جعل يهتف: (يابنى فلان، يابنى عبدمناف يابنى عبدالمطلب أنقذوا أنفسكم من النار) الحديث.

٢ - وقال الشافعى وأحمد وأبو ثور ومجاهد وقتادة وابن جريج ومسلم بن خالد:

بنو هاشم وبنو عبدالمطلب، لأن النبى ﷺ لما قسم سهم ذوى القربى بين بنى هاشم وبنى عبدالمطلب قال: (إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا

(١) فتح القدير للشوكانى وتفسير القرطبى وينظر كذلك أحكام القرآن لابن العربى وأحكام القرآن للكيا الهراسى ويعلق الفخر الرازى على هذه الآراء بقوله: واعلم أن ظاهر الآية مطابق لقول الشافعى وصريح فيه فلا يجوز العدول عنه إلا لدليل منفصل أقوى منها.

إسلام إنما بنو هاشم وبنو عبدالمطلب شيء واحد) (وشبك بين أصابعه) أخرجه النسائى والبخارى.

قال البخارى: قال الليث حدثنى يونس، وزاد: ولم يقسم النبى ﷺ لبنى عبدشمس ولبنى نوفل شيئاً.

قال النسائى: وأسهم النبى ﷺ لذوى القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب، بينهم الغنى والفقير[1].

٣ ـ بنو هاشم خاصة، قاله مجاهد وعلى بن الحسين، وهو قول مالك والثورى والأوزاعى وغيرهم.

ونرى أن رأى الشافعى هو الأصوب لقوة أدلته السابقة والله أعلم.

والمراد باليتامى: أى أيتام المسلمين واختلف العلماء هل يختص بالأيتام الفقراء أو يعم الأغنياء والفقراء؟ على قولين.

والمساكين: هم المحاويج الذين لا يجدون ما يسد خلتهم ومسكنتهم.

وابن السبيل هو المسافر أو المريد للسفر إلى مسافة تقصر فيها الصلاة، وليس له ما ينفعه فى سفره ذلك[2].

هذا ولم يبين سبحانه حال الأخماس الأربعة الباقية وحيث بين جل شأنه حكم الخمس ولم يبينها دل على أنها ملك الغانمين وقسمتها:

عند أبى حنيفة للفارس سهمان وللراجل سهم واحد، لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ فعل كذلك، والفارس فى السفينة

---

(١) تفسير القرطبى ويعلق القرطبى على قول النسائى: وقد قيل: أنه للفقير منهم دون الغنى كاليتامى وابن السبيل ـ وهو أشبه القولين عندى بالصواب.

(٢) تفسير ابن كثير.

يستحق سهمين أيضاً وإن لم يمكنه القتال عليها فهى للتأهب والمتأهب للشىء كالمباشر كما فى المحيط ولا فرق بين الفرس المملوك والمستأجر والمستعار.

وذهب الشافعى ومالك إلى أن للفارس ثلاثة أسهم لما روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أن النبى ﷺ أسهم للفارس ذلك وهو قول الإمامين.

وأجيب بأنه قد روى عن ابن عمر أيضاً أن النبى ﷺ (قسم للفارس سهمين)، فإذا تعارضت روايتاه ترجح رواية غيره بسلامتها عن المعارضة فيعمل بها وهذه الرواية رواية ابن عباس رضى الله تعالى عنهما[١].

ثم يقول الله تعالى تعقيباً على ما سبق موضحاً أن تحقق الإيمان لا يكون إلا بقبول حكم الله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أى أن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة. قال فى الكشاف: إنه متعلق بمحذوف يدل عليه ﴿وَاعْلَمُوا﴾ بمعنى إن كنتم آمنتم بالله واليوم الآخر فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالأخماس الأربعة، وليس المراد بالعلم المجرد، ولكن العلم المضمن بالعمل والطاعة لأمر الله، لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر[٢].

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ هو يوم بدر فالإضافة للعهد، والفرقان بالمعنى اللغوى: فإن ذلك اليوم قد فرق فيه الحق والباطل.

---

(١) تفسير الألوسى.

(٢) تفسير الكشاف للزمخشرى.

و﴿ يوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ﴾ بدل منه أو متعلق بالفرقان وتعريف الجمعان للعهد، والمراد بهم الفريقان من المؤمنين والكافرين والمراد بما أنزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات والملائكة والنصر على أن المراد بالإنزال مجرد الايصال والتيسير فيشمل الكل شمولاً حقيقياً فالموصول عام ولا جمع بين الحقيقة والمجاز خلافاً لمن توهم فيه، وجعل الإيمان بهذه الأشياء من موجبات العلم يكون الخمس لله تعالى على الوجه المذكور من حيث أن الوحى ناطق بذلك وأن الملائكة والنصر لما كانا منه تعالى وجب أن يكون ما حصل بسببهما من الغنيمة مصروفاً إلى الجهات التى عينها الله سبحانه[1].

﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فقد أراكم قدرته ونعمته بمعجزاته فى غزوة بدر، ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة.

## فى المواجهة بين الإسلام والشرك:

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾.

## معانى المفردات

﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا ﴾ : العامل فى إذ التقى والعدوة شفير الوادى قرىء بالضم والكسر وهما لغتان، والدنيا القريبة من المدينة والقصوى البعيدة.

---

(١) تفسير الألوسى.

﴿ والركب أسفل منكم ﴾ : يعنى العير التى كان فيها أبو سفيان وكان قد نكب عن الطريق خوفاً من النبى ﷺ، وكان جمع قريش المشركين قد حال بين المسلمين وبين العير.

﴿ ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ﴾ : أى لو تواعدتم مع قريش ثم علمتم كثرتهم وقلتكم لا ختلفتم ولم تجتمعوا معهم أو لو تواعدتم لم يتفق اجتماعكم مثل ما اتفق بتيسير الله ولطفه.

﴿ ليهلك من هلك عن بينة ﴾ : أى يموت من مات ببدر عن أعذار وإقامة الحجة عليه ويعيش من عاش بعد البيان له، وقيل ليهلك من يكفر ويحى من يؤمن[١].

﴿ وإن الله لسميع عليم ﴾ : فيجازى كل فريق وفق علمه تعالى بأحوالهم وعقائدهم.

## مناسبة هذه الآية لما قبلها:

هذه الآية دلالة واضحة من الله تعالى أن النصر الذى تم فى معركة بدر كان بتوفيق الله تعالى وعونه وتأتى هذه الآية بعد حكم الله فى تقسيم الغنائم ولذا كان من المناسب ذكرها لتوضيح الأمر للمسلمين من تذكيرهم بنعم الله تعالى عليهم فتطمئن نفوسهم بما قسم الله تعالى لهم من الغنائم.

## المعنى التفصيلى العام للآيات:

إذا بدل من ﴿ يوم التقى الجمعان ﴾ فهو ظرف (لأنزلنا) أى زمن أنتم بالعدوة الدنيا وقد أريد من هذا الظرف وما أضيف إليه تذكيرهم

---

(١) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزى.

بحالة حرجة كان المسلمون فيها وتنبيهم للطف عظيم حفهم ورعايتهم من الله تعالى، وهى حالة موقع جيش المسلمين من جيش المشركين، وكيف التقى الجيشان فى مكان واحد من غير ميعاد ووجد المسلمون أنفسهم أمام عدو قوى العدة والعدة والمكانة من حسن الموقع، ولولا هذا المقصد من وصف هذه الهيئة لما كان من داع للاطناب إذ ليس من أغراض القرآن وصف المنازل إذا لم تكن فيه عبرة.

والعدوة ضفة الوادى وشاطئه، والمراد بها شاطىء وادى بدر، وبدر اسم ماء و(الدنيا) هى القريبة أى العدوة التى من جهة المدينة فهى أقرب لجيش المسلمين من العدوة التى من جهة مكة. والعدوة القصوى هى التى مما يلى مكة وهى كثيب، وهى قصوى بالنسبة لموقع بلد المسلمين[1].

وهذا الوصف من الله سبحانه وتعالى لأماكن المسلمين والكفار إشعار منه تعالى بالجو العام لبدايات المعركة من حرص المسلمين على أن يحصلوا على أماكن للقتال من أماكن العدو مثل الحصول على العدوة القصوى حيث أنها أصلب أرضاً وحزن المسلمون لسبق جيش الكفار لهذا الموقع فكان من نعم الله على المسلمين أن لبد لهم أرض العدوة الدنيا بالمطر فصارت صلبة واستطاعوا السير فيها، وأصاب الأرض التى بها قريش فعطلهم عن الرحيل فلم يبلغوا بدراً إلا بعد أن وصل المسلمون وتخيروا أحسن المواقع. وحصلوا على الماد فاتخذوا حوضاً يكفيهم وغوروا الماء فكان المسلمون يشربون ولا يجد المشركون ماء.

والمراد بالركب هو القافلة القرشية (العير) فى رجعتها من الشام

---

(١) التحرير والتنوير.

فكانت أخفض من منازل الفريقين حيث أن العير كانت على طريق الساحل وكان ماء بدر عن يسارهم.

ويثور بنا تساؤل ما هو الغرض من التقييد بهذا الوقت وبتلك الحالة ؟: والجواب إحضارها فى ذكرهم، لأجل ما يلزم ذلك من شكر نعمة الله، ومن حسن الظن بوعده والاعتماد عليه فى أمورهم فإنهم كانوا حينئذ فى أشد ما يكون فيه جيش تجاه عدوه، لأنهم يعلمون أن تلك الحالة كان ظاهرها ملائماً للعدو، إذ كان العدو فى شوكة واكتمال عدة، وقد تمهدت له أسباب الغلبة بحسن موقع جيشه، إذ كان بالعدوة التى فيها الماء لسقياهم، والتى أرضها متوسطة الصلابة، فأما جيش المسلمين فقد وجدوا أنفسهم أمام العدو فى عدوة تسوخ فى أرضها الأرجل من لين رملها مع قلة مائها، وكانت العير فقد فاتت المسلمين وحلت وراء ظهور جيش المشركين، فكانت فى مأمن من أن ينالها المسلمون، وكان المشركون واثقين بمكنة الذب عن عيرهم، فكانت ظاهرة خيبة وخوف للمسلمين، وظاهرة فوز وقوة للمشركين، فكان من عجيب عناية الله بالمسلمين، أن قلب تلك الحالة راساً على عقب، فأنزل من السماء مطراً تعبذت به الأرض لجيش المسلمين فساروا فيها غير مشفوق عليهم، وتطهروا وسقوا، وصارت به الأرض لجيش المشركين وحلاً يثقل فيها السير، وفاضت المياه عليهم، وألقى الله فى قلوبهم تهوين أمر المسلمين فلم يأخذوا حذرهم، ولا أعدوا للحرب عدتها، وجعلوا مقامهم هنالك مقام لهو وطرب، فجعل الله ذلك سبباً لنصر المسلمين عليهم، ورأوا كيف أنجز الله لهم ما وعدهم من النصر الذى لم يكونوا يتوقعونه، فالذين خوطبوا بهذه الآية هم أعلم السامعين بفائدة التوقيت الذى فى قوله ﴿ إِذْ أَنتُم

بالْعُدْوَة الدُّنْيَا﴾ الآية ولذلك تعين على المفسر وصف الحالة التى تضمنتها الآية ولولا ذلك لكان هذا التقييد قليل الجدوى[١].

ثم يخبر الله تعالى عن تقديره لزمن المعركة فيقول: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أى لو عرفتم بهذا اللقاء أنتم والكفار وعلمتم حالهم وعلموا حالكم لما تم لقاء على الاطلاق حيث أنكم ستتهيبون لقاء الكفار لكثرة عددهم وعدتهم، ومقتضى ذكر هذا بيان أن النصر للإسلام يوم الفرقان كان من لدن الله العزيز الحكيم ونحن فى مجال التذكير بنعمه تعالى.

﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً﴾: وهو تلاقيكم على غير موعد فكان نصر الله لجنده وقهره لأعدائهم حيث قال الله تعالى واعداً لهم ﴿وكان حقا علينا نصر المؤمنين﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾: قال فيها محمد بن اسحاق: أى ليكفر من كفر بعد الحجة لما رأى من الآية والعبرة ويؤمن من آمن على مثل ذلك[٢].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: أى بكفرمن كفر وعقابه وإيمان من آمن، وثوابه، ولعل الجمع بين الوصفين لاشتمال الكفر والإيمان على الاعتقاد والقول، أما اشتمال الإيمان على القول فظاهر لاشتراط إجراء الأحكام بكلمتى الشهادة، وأما اشتمال الكفر عليه فبناء على المعتاد فيه أيضاً[٣].

---

(١) المصدر السابق.
(٢) سيرة ابن هشام وتفسير بن كثير.
(٣) تفسير الألوسى.

**من أمداد الله نبيه ﷺ وصحابته بالآيات الغيبية:**

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً ﴾: أراهم الله إياه فى منامه قليلاً، وأخبر النبى ﷺ أصحابه بذلك، فكان تثبيتاً لهم[1].

﴿ وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ ﴾: لجبنتم عن الحرب.

﴿ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ ﴾: اختلفتم.

﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ﴾: أى سلمكم من المخالفة، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: من الفشل ويحتمل منها، وقيل: سلم أى أتم أمر المسلمين بالظفر[2].

﴿ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾: أى بما تجنه الضمائر وتنطوى عليه الأحشاء ﴿ يعلم خائنة الأعين وماتخفي الصدور ﴾.

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ﴾: وهذا أيضاً من لطفه تعالى بهم، إذ أراهم قليلاً فى رأى العين، فيجرؤهم عليهم ويطمعهم فيهم[3].

﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾: روى ابن أبى حاتم بسنده عن عكرمة

---

(١) قاله مجاهد فى تفسيره وابن اسحق فى سيرته.

(٢) تفسير القرطبى.

(٣) تفسير بن كثير.

في معنى ﴿ وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ﴾ قال: حضض بعضهم على بعض.

﴿ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾: أي ليلقى بينهم الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه، والإنعام على من أراد تمام النعمة عليه من أهل ولايته(١).

﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾: فيفصل فيها كما يريد ويفعل فى شأنها ما يشاء.

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

فى الآيات السابقة بين الله سبحانه وتعالى أن لقاء المسلمين بالكفار فى المعركة ولم يكن هناك التجهيز الكافى من المسلمين لأجل ذلك فكان من المناسب أن وضح الله تعالى فى آياتنا تلك أن رحمته تكون دائماً مع قضائه فكان ما كان فيها من هذه الانعامات الالهية حتى وصلت إلى درجة التشجيع على القتال للمؤمنين وتيئيس المشركين من النصر.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

يزيد الله تعالى نبيه ﷺ حفاوة فيريه فى منامه أعداءه على كثرتهم قلة ضئيلة ليذهب هيبة كثرتهم من قلوب القلة المؤمنة، ويطمعهم فيهم، ويجرئهم عليهم فى قتالهم، بل يزيد الله تعالى فى تلطفه بعباده المؤمنين فيعم حفاوته حتى تنال جند المجتمع المسلم بعد أن أخبرهم النبى ﷺ برؤياه ليزيدهم يقيناً فى حفاوة الله بهم، فيروا أعداءهم الذين كانوا يتهيبون كثرتهم رؤية عين قليلين.

أخرج ابن أبى شيبة عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه، قال:

---

(١) المصدرالسابق.

لقد قللوا فى أعيننا يوم بدر حتى قلت لرجل إلى جنبى: تراهم سبعين؟ قال: لا، بل مائة، حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه؟ قال: كنا ألفاً.

فرؤيا النبى ﷺ منامية،وهى من مراتب الوحى، ورؤية الصحابة بصرية يقظية بدليل قوله ﴿رأي العين﴾ فى آية آل عمران ﴿يرونهم مثليهم رأي العين﴾ وقوله ﴿فِي أَعْيُنِكُمْ﴾ فى الأنفال، ولا داعى مطلقاً للتأويل لأن هذا من قبيل الامداد الإلهى، وهو جار على مقتضى نظام السنن الكونية الخاصة، فالآيات متوافقة، وهى كلها فى قصة واحدة هى غزوة بدر، والظاهر أن رؤيا النبى ﷺ كانت وهو فى خفقته وهو فى العريش قبل التحام القتال، ورؤية الصحابة كانت عند الالتقاء للقتال، وقد حكى بعض المفسرين الاجماع على أن آية ﴿قد كان لكن آية في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله، وأخري كافرة يرونهم مثيلهم رأي العين﴾ مثال آيتى الأنفال، ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً﴾، بدرية، نزلت فى غزوة بدر تحذيراً لبنى قينقاع من اليهود، ورداً عليهم فى غرورهم، وقولهم عند علمهم بهزيمة قريش فى غزوة بدر: لو قاتلنا محمد - ﷺ - لعلم أنا الناس، وأنا أخبر بالقتال من قريش، فنزل قوله تعالى: ﴿قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلي جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية - أى عبرة زاجرة - في فئتين التقتا : فئة تقاتل في سبيل الله، وأخري كافرة يرونهم مثليهم رأي العين، والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾.

قال أبو حيان فى تأويل: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً﴾:

والمـراد بالقلة هنا قلة القـدر والبـأس والنجـدة، وأنـهم مـهـزومـون، مصروعون، ولا يحمل على قلة العدو، لأن النبى ﷺ رؤياه حق وقد كان علم أن المشركين ما بين التسعمائة إلـى الألف، فلا يمكن حمل ذلك على قلة العدد.

ويظهر أن أبا حيان وهل عن أن المقام مقام إعجاز وآيات غيبية وهذا عدول عن مقام نزول الآيات، وأنها نزلت بمعجزات النبى ﷺ على مقتضى سنن الله تعالى الخاصة فى تدبير أمر عباده فعلم النبى ﷺ أن المشركين كانوا ما بين التسعمائة إلى ألف كان من قبيل الواقع المرتبط بأسبابه العامة ورؤياه لهم فى المنام ـ وهى حق لأنها إحدى مراتب الوحى ـ قليلاً من قبيل الإعجاز الجارى على مقتضيات سنن الله الخاصة، والتقليل الموافق للحق يحتمل أن الله تعالى حجب عددهم الذى كان يعلمه، وأراه عدداً يبدوا قليلاً، وهذا من قبيل تكثير الطعام، والماء القليلين لكفاية العدد الكثير الذى يستحيل بمقتضى الأسباب العادية أن يكفيهم، فتكثير الطعام والماء كتقليل العدد كلاهما يكون بأسباب خفية يستأثر الله بها.

وأبو حيان يقول فى تأويل الآية الثانية: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ﴾: وقلل الكفار فى أعين المؤمنين تحقيراً لهم ولئلا يجبنوا عن لقائهم.

والمؤمنون كانوا قد علموا علماً قاطعاً بأخبار رسول الله ﷺ لهم بأن نفير قريش كان ما بين التعسمائة والألف، وتقليل الله الكفار فى أعين المؤمنين لابد أن يكون جارياً على سبب خاص، وهو حق واقع لعلمهم بكثرة عددهم بإخبار النبى ﷺ بذلك فما يقال هنا، يقال هناك، والمرجع بالنسبة للنبى ﷺ الوحى فى رؤياه والمرجع بالنسبة للمؤمنين فى تيقنهم كثرة عدد الكفار قبل رؤيتهم لهم قليلاً هو إخبار رسول الله ﷺ بذلك.

ويزيد أبو حيان على ذلك فيفسر عبارة الإمام عبدالله بن مسعود رضى الله عنه حين قال: لقد قللوا فى أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبى أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة: فقال أبو حيان: وهذا من عبدالله لكونه لم يسمع من رسول الله ﷺ ما أعلم به من عددهم.

ونرى أن أسلوب عبدالله بن مسعود واضح فى أنه كان على علم بكثرة عدد الكفار، قبل أن يتلاقى الفريقان، ثم قللهم الله فى أعين المؤمنين، لأن تعبير ابن مسعود بقوله، قللوا فى أعيننا واضح فى أن التقليل طارىء على عدد الكفار، وأنهم كانوا فى واقعهم كثرة أرهبت بعض المؤمنين.

وهذا المعنى هو الذى تفيده صياغة الفعل (قللوا)، قال الفيومى فى (المصباح): وقللته فى عين فلان تقليلاً، جعلته قليلاً عنده حتى قلله فى نفسه وإن لم يكن قليلاً فى نفس الأمر

وأسلوب الآية: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً ﴾، واضح فى الامتنان على المؤمنين بتقليل العدد الكثير الذى كان يخيفهم، ويؤكد هذا ما جاء فى آية آل عمران (يرونهم مثليهم رأى العين) على أرجح تأويلاتها.

ويقول أبو حيان: فإن كانت هذه الآية وآية الأنفال فى قصة واحدة - وقد نقل أبو حيان نفسه قول صاحب رى الظمآن: أجمع المفسرون على أنها فى وقعة بدر - أى آية ﴿ قد كان لكم آية في فئتين التقتا ﴾ فالجمع بين هذا التكثير، وذلك التقليل باعتبار حالين، قللوا أولاً فى أعين الكفار حتى يجترؤا على ملاقاة المؤمنين، وكثروا حالة الملاقاة حتى قهروا أعدائهم وغلبوهم[١].

---

(١) من دراسة للشيخ محمد الصادق عرجون (محمد رسول الله منهة ورسالة).

**فى التعبئة الروحية أثناء المعركة:**

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَة ﴾: اللقاء الحرب، والفئة المشركين: أى إذا حاربتم المشركين.

﴿ فَاثْبُتُوا ﴾: لا تجبنوا عنهم.

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾: أن يذكروا الله فى حال ذلك الثبات ولا ينسوه بل يطلبوا إليه المعونة والتأييد.

﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾: نهى عن الاختلاف فى الرأى فإن ذلك يتسبب عنه الفشل وهو الجبن فى الحرب.

﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾: أى قوتكم ووحدتكم وما كنتم فيه من الإقبال.

﴿ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾: أى الصبر على ما يعانونه فى حال الشدائد فإن الله يكون المتولى لهم والناصر.

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

فى الآيات السابقة كان هناك ذكر وتعداد لنعم الله سبحانه وتعالى عليهم فكان من المناسب ذكر هذه الآيات بعد ذلك لبيان أن الاستمرار فى هذه النعم والأهلية لها يتحققان بالثبات فى الحرب والطاعة لله ولرسوله ﷺ ولا طريق للنصر والفوز والجنة إلا بعدم التنازع والخلاف.

## المعنى التفصيلى العام للآيات:

تبدأ الآيات بنداء الذين آمنوا - فى سلسلة النداءات المتكررة للعصبة المسلمة فى السورة - وتوجيههم إلى الثبات عند لقاء الأعداء، إلى التزود بزاد النصر، والتأهب بأهبته.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

فهذه أنواع من عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو، والاتصال بالله بالذكر والطاعة لله والرسول، وتجنب النزاع والشقاق، والصبر على تكاليف المعركة.

فإما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر، فأثبت الفريقين أغلبهما وما يدرى الذين آمنوا أن عدوهم يعانى أشد مما يعانون، وأنه يألم كما يألمون، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون، فلا مدد له من رجاء فى الله يثبت أقدامه وقلبه، وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسيخذل عدوهم وينهار، وما الذى يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين: الشهادة أو النصر؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا، وهو حريص على هذه الحياة التى لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها ولا حياة له سواها.

وأما ذكر الله كثيراً عند لقاء العدو من التوجيه الدائم للمؤمن، كما أنه التعليم المطرد الذى استقر فى قلوب العصبة المؤمنة، وحكاه عنها القرآن الكريم فى تاريخ الأمة المسلمة فى موكب الإيمان التاريخى.

ومما حكاه كذلك عن الفئة القليلة المؤمنة من بنى إسرائيل، وهى تواجه جالوت وجنوده: ﴿ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا علي القوم الكافرين﴾.

ومما حكاه عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ فى مواجهة المعركة ﴿وكاي من بني قاتل معه ربيون كثير، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله. وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا، وثبت أقدامنا، وانصرنا علي القوم الكافرين﴾.

وقد استقر هذا التعليم فى نفوس العصبة المسلمة، فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدواً، وقد حكى الله ـ فيما بعد ـ عن العصبة التى أصابها القرح فى (أحد): فلما دعيت إلى الخروج ثانى يوم، كان هذا التعليم حاضراً فى نفوسها: ﴿الذين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم. فزادهم إيمانا، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدى وظائف شتى: إنه الاتصال بالقوة التى لا تغلب، والثقة بالله الذى ينصر أولياءه، وهو فى الوقت ذاته استحضار حقيقية المعركة وبواعثها وأهدافها، فهى معركة لله، لتقرير الوهيته فى الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية، وإذن فهى معركة لتكون كلمة الله هى العليا، لا للسيطرة، ولا للمغنم، ولا للاستعلاء الشخصى أو القومى.. كما أنه توكيد لهذا الواجب ـ واجب ذكر الله ـ فى أحرج الساعات وأشد المواقف.. وكلها ايحاءات ذات قيمة فى المعركة يحققها هذا التعليم الربانى.

وأما طاعة الله ورسوله. فلكي يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين

لله ابتداء، فتبطل أسباب النزاع التى أعقبت الأمربالطاعة: ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ .. فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذى يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسى للنزاع بينهم ـ مهما اختلفت وجهات النظر فى المسألة المعروضة ـ فليس الذى يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذى يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها أو إنما هو وضع (الذات) فى كفة، والحق فى كفة، وترجيح الذات على الحق ابتداء.. ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة.. أنه من عمليات (الضبط) التى لابد منها فى المعركة.. أنها طاعة القيادة العليا فيها، التى تنبثق منها طاعة الأمير الذى يقودها، وهى طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية فى الجيوش التى لا تجاهد لله، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلاً.. والمسافة كبيرة كبيرة..

وأما الصبر، فهو الصفة التى لابد منها لخوض المعركة. اية معركة. فى ميدان النفس أم فى ميدان القتال.

﴿ واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾.

وهذه المعية من الله هى الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح[1].

## الإخلاص فى القتال:

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ

(١) فى ظلال القرآن للشهيد سيد قطب.

أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب (٤٨) إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم﴾: يعنى كفار قريش حين خرجوا لبدر.

﴿بطرا﴾: أى عتوا وتكبرا.

﴿ورئاء الناس﴾: للثناء من الناس وللتمدح إليهم والفخر عندهم وهو الرياء.

﴿ويصدون عن سبيل الله﴾: يمنعون بينهم وبين طرق الهداية.

﴿والله بما يعملون محيط﴾: فيجازيهم عليها.

﴿وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾: بأن يحسن لهم تصرفات العداوة للمسلمين.

﴿وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم﴾: روى أن الشيطان تمثل لهم فى صورة سراقة بن مالك بن جشعم وقال لهم ذلك.

﴿فلما تراءت الفئتان﴾: المسلمين والكفار.

﴿نكص على عقبيه﴾: تراجع عن مقولته تلك أو رجع القهقرى.

﴿وقال إني بريء منكم﴾ وكان هذا التبرؤ بعد رؤيته علامات نصر المسلمين على الكافرين.

﴿إني أرى ما لا ترون﴾: يعنى الملائكة ونصر الله.

﴿ وإني أخاف الله ﴾ : اعتل بذلك حتى ينصرف عن نصرة الكفار.

﴿ والله شديد العقاب ﴾ : يحتمل أن يكون من كلام إبليس اللعين، أو يكون استئنافاً من جهته سبحانه وتعالى.

﴿ إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ﴾ : أى ظنوا فى دينهم المتعة والجاه والسلطان فاغتروا به وظنوا أن إيمانهم سيكفل لهم النصر.

﴿ ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم ﴾ : أى يمنع من التجأ إليه ويحميه وهو حكيم فى أفعاله فينصر من يستحق النصر، ويخذل من هو أهل لذلك فمن حكمته فى أفعاله أنه لا يضعها إلا مواضعها.

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

فى الآيات السابقة أمرالله تعالى المؤمنين بالثبات فى القتال، وذكر الله ونبذ الخلاف والطاعة الكاملة لله والرسول ﷺ فكان من المناسب بعد ذلك نهيهم فى هذه الآيات عن التشبه بمشركى مكة حيث خرجوا فى صورة حمقاء من البطر والرياء بتعضيد من إخوانهم الشياطين فكانت العاقبة أن تخلى عنهم أولياؤهم من الشياطين ورجعوا بخسران مبين.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

يقول الله تعالى بعد أمره المؤمنين بالإخلاص فى القتال فى سبيله، وكثرة ذكره، ناهياً لهم عن التشبه بالمشركين فى خروجهم من ديارهم، بطرا أى دفعاً للحق (ورئاء الناس) وهو المفاخرة والتكبر عليهم، كما قال أبوجهل: لما قيل له أن العير قد نجا فارجعوا، فقال: لا والله لا نرجع، حتى نرد ماء بدر، وننحر الجزر، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، وتتحدث العرب بمكاننا فيها يومنا أبداً، فانعكس ذلك عليه أجمع، لأنهم

لما وردوا ما ء بدر وردوا به الحمام وركموا في اطواء بدر مهانين اذلاء، صغرة أشقياء في عذاب سرمدي أبدي، ﴿ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ فهو عالم بما جاءوا به وله، ولهذا جازاهم عليه شر الجزاء لهم[١].

يقول الدكتور محمد السيد جبريل في كتابه (المفهوم الإسلامى للحرب والسلام): لقد شجعهم الشيطان فى ذلك على الخروج وحسن لهم هذا الفعل.. وفى كيفية هذا التزيين وردت روايتان عن ابن عباس رضى الله عنهما:

أحداهما: ما رواه عنه ابن جرير: (قال ابن عباس فى هذه الآية: لما كان يوم بدر سار إبليس برايته وجنوده مع المشركين، وألقى فى قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإنى جار لكم. فلما التقوا ونظر الشيطان إلى امداد الملائكة، ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ﴾، قال: رجع مدبراً، وقال: ﴿ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ ﴾.

فهذه الرواية تشير إلى أن التزيين كان بمعنى الوسوسة، وبهذا المعنى تمسك الشيخ محمد رشيد رضا، فقد ذكر هذه الرواية فى تفسيره ثم عقب عليه بقوله: (أقول معنى هذا أن جند الشيطان الخبيث كانوا منبثين فى المشركين يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يغريهم ويغرهم، كما كان الملائكة منبثين فى المؤمنين يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم، ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم).

ومن قبل صاحب المنار تمسك الألوسي بهذا المعنى أيضاً حيث قال عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ

---

(١) تفسير ابن كثير.

لَكُم﴾: (أى ألقى فى روعهم وخيل لهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم وعددهم، وأوهمهم أن أتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات مجير لهم وحافظ عن السوء).

أما الثانية: فهى ما رواه عنه ابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى الدلائل وغيرهم، قال: (جاء إبليس فى جند من الشياطين ومعه راية فى صورة رجال من بنى مدلج، والشيطان فى صورة سراقة بن مالك بن جعشم، فقال الشيطان: ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُم﴾، وأقبل جبريل على إبليس، فلما رآه، وكانت يده فى يد رجل من المشركين انتزع إبليس يده، وولى مدبراً وشيعته، فقال الرجل: يا سراقة، إنك جار لنا، فقال: ﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ﴾ وذلك حين رأى الملائكة).

وهذه الرواية وغيرها من تمثل إبليس فى صورة بشر يوم بدر قد وردت فى كثير من التفاسير، وبها قال ـ واختارها ـ كثير من المفسرين.

وهناك فريق ثالث سلك مسلك التوقف عند اللفظ القرآنى عند تعارض الروايات من هؤلاء الأستاذ سيد قطب رحمه الله حيث يقول: (ولكننا لا نعلم الكيفية التى زين لهم بما أعمالهم، والتى قال لهم بها ﴿لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُم﴾، والتى نكص بها كذلك وقال ما قاله بعد ذلك.

(الكيفية فقط هى التى لا نجزم بها، ذلك أن أمر الشيطان كله غيب، ولا سبيل لنا إلى الجزم بشيء فى أمره، إلا فى حدود النص المسلم، والنص هنا لا يذكر الكيفية أنها يثبت (الحادث).

ثم يقول: (ولا نميل إلى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده فى التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبى من هذا القبيل تأويلاً

معيناً ينفى الحركة الحية من هذه العوالم، وذلك كقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير الآية ...) .

وبعد أن استعرض رأى الشيخ رشيد رضا قال: (هذا كله مبالغة فى تأويل النصوص المتعلقة بأمور غيبية، حيث لا ضرورة لهذا التأويل، لأنه ليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ منها. وكل ما ينبغى هو الوقوف وراء النصوص بلا تفصيلات ولا تدل عليها دلالة صريحة) .

ومع أقرارنا لمنهج الشهيد رحمه الله من عدم الدخول فى تفصيلات، لم يقم عليها دليل، فإن ألفاظ الآية مما ورد من كلام الشيطان: ﴿ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ أني أخاف الله ﴾ تؤيد الرواية الثانية لابن عباس أكثر مما تؤيد الرواية الأولى، ولا مجال للطعن فى الرواية بصغر سن ابن عباس رضى الله عنهما إبان موقعة بدر لأن الرواية الأولى وردت عنه أيضاً.

وخلاصة القول أن الله تعالى ينهى المؤمنين عن الاتصاف بصفات الكفار من الغرور والرياء الذى أهلكم، عندما اتبعوا ما أغراهم به الشيطان من المضى للقاء المسلمين أنهم لن يغلبوا، حتى إذ جد الجد خذلهم، وزعم أنه فعل ذلك خوفاً من الله تعالى ـ وقد كذب ـ لأنه ما فعل إلا عندما ليس من حالهم، لما رأى من امداد الله تعالى لهم بالملائكة.

ثم تأتى ثالثة الآيات لتقرر أن نصر المؤمنين، وهزيمة الكافرين قد تم رغم تكاتف المنافقين ومرضى القلوب على المسلمين: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ .

ففى نفس الوقت الذى قاد الشيطان فيه حملة الشرك مزيناً لها الباطل فى حرب الإسلام ورسوله عليه السلام، نفث المنافقون أيضاً

سمومهم، ومعهم الذين فى قلوبهم مرض، وهم ـ كما قال المفسرون ـ قوم من الذين لم يتمكن الإيمان فى قلوبهم، فهم أقل من المنافقين فى الخطورة، ولكن مقالتهم هنا وافقت مقالة المنافقين.

أقول قد نفثوا هذه السموم بالسخرية من المؤمنين، عندما رأوهم بعددهم القليل يقومون لمحاربة العدد الكبير من الكفار فقال: ﴿ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾، وهؤلاء وأولئك ما قالوا هذه المقالة، إلا لأنهم لم يروا من الأمور غير ظواهرها، دون أن تهديهم بصيرة إلى مواطنها من معونة الله ونصره الذى لا تغنى أمامه كثرة، ولا تضعف فى جانبه قلة، فقالوا ما قالوا، ولكن الآية تقرر رداً على هؤلاء:

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

**وإن الله ليس بظلام للعبيد:**

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ** ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ ﴾: خطاب للنبى ﷺ أو لكل من يمكن أن يشمله الخطاب.

(١) المفهوم الإسلامى للحرب والسلام دكتور محمد السيد جبريل.

﴿ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ ﴾: لرأيت أمراً فظيعاً شديداً.

﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ ﴾: وهى ما أقبل منهم.

﴿ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾: ما أدبر منهم وهو عبارة عن الظهر من خلفهم.

﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾: عطف على ﴿ يَضْرِبُونَ ﴾ باضمار القول أى ويقولون ذوقوا، أو حال من ضميره كذلك أى ضار بين وجوههم وقائلين ذوقوا، وهو على الوجهين من قول الملائكة، والمراد بعذاب الحريق عذاب النار فى الآخرة.

﴿ ذَلِكَ ﴾: أى الضرب والعذاب اللذان لقيتموهما.

﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾: وقع بسبب ما كسبتم من الكفر والمعاصى.

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾: لبيان كمال نزاهته تعالى فى استحالة صدور الذنب عنه.

﴿ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ : الجملة استئناف مسوق لبيان أن ما حل بهم من العذاب بسبب كفرهم لا بشىء آخر: حيث شبه حالهم بحال المعروفين بالاهلاك لزيادة تقبيح حالهم وللتنبيه على أن ذلك سنة مطردة فيما بين الأمم فى حال ظلمها.

﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾: أى قبل قوم فرعون مثل قوم نوح وعاد وأضرابهم حيث لقوا نفس العذاب.

﴿ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾: تفسير لدأبهم ولكن بملاحظة أنه الذى فعلوه لا لدأب آل فرعون ومن بعدهم فإن ذلك معلوم منه بقضية التشبيه.

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ : أى بسبب ذنوبهم أهلكهم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾: أى لا يغلبه غالب.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا

بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيم﴾ : تعليل. أى هذا العقاب: لأنهم غيروا وبدلوا، ونعمة الله على قريش الخصب والسعة والأمن والعافية. ﴿أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم﴾[١] الآية.

ويخبر الله تعالى عن تمام عدله وقسطه فى حكمه بأنه تعالى لا يغير نعمة أنعمها على أحد ألا بسبب ذنب أرتكبه ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتي يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال﴾[٢].

وقال السدى: نعمة الله عليهم محمد ﷺ فكفروا به، فنقل إلى المدينة وحل بالمشركين العقاب[٣].

﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾:

استئاف آخر على ما ذكره بعض المحققين مسوق لتقرير ما سبق له الاستئناف الأول بتشبيه دأبهم بدأب المذكورين لكن لا بطريق التكرير المحض بل بتغيير العنوان وجعل الدأب فى الجانبين عبارة عما يلازم معناه الأول وتفسير الحال وتغيير النعمة أخذاً مما نطق به قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيرا﴾ إلخ أى كدأب هؤلاء وشأنهم الذى هو عبارة عن التغييرين المذكورين كدأب أولئك غيروا حالهم فغير الله تعالى نعمته عليهم فقوله سبحانه: ﴿كذبوا بآيات ربهم﴾ تفسير لدأبهم الذى فعلوه من تغييرهم لحالهم، وأشير بلفظ الرب إلى أن ذلك التغيير كان

---

(١) تفسير القرطبى.

(٢) تفسير ابن كثير.

(٣) تفسير القرطبى.

بكفران نعمه تعالى لما فيه من الدلالة على أنه مربيهم المنعم عليهم، وقوله سبحانه ﴿ فأهلكناهم ﴾ تفسير لدأبهم الذى فعل بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته جل شأنه[١].

﴿ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ﴾ : بعطفه على (أهلكنا) ايذان بكمال هول الإغراق ومدى التعذيب الذى نالوه به.

﴿ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾: سواء هذا الفريق أو ذاك أصابهم ما أصابهم لكفرهم وتكذيبهم ومعاصيهم واحلالهم لهم محل الإيمان.

## مناسبة الآيات لما قبلها:

فى الآيات السابقة بين الله تعالى أفعال الكفار مع رسول الله ﷺ وما سيلاقونه جزاءاً عليها فى الدنيا فكان من المناسب فى هذه الآيات بيان ما سيلاقونه من العذاب فى الآخرة وتوضيح أنهم فعلوا ما سبق أن فعلته الأمم السابقة فكان هلاكهم بألوان من العذاب هى من الفظاعة بمكان والله ليس بظلام للعبيد.

## المعنى التفصيلى العام للآيات:

قوله ﴿ ولو تري ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ، أو لكل من يصلح له والمعنى: ولو رأيت، لأن لو تقلب المضارع ماضياً، و(إذ) ظرف لترى، والمفعول محذوف، أى ولو ترى الكافرين وقت توفى الملائكة لهم، قيل: أراد بالذين كفروا من لم يقتل يوم بدر، وقيل هى فيمن قتل ببدر وجواب لو محذوف تقديره لرأيت أمراً عظيماً، وجملة (يضربون وجوههم) فى محل نصب على الحال، والمراد بأدبارهم استاهم، كنى عنها بالأدبار، وقيل ظهورهم، قيل هذا الضرب يكون عند الموت كما يفيده ذكر

---

(١) راجع تفسير الألوسى.

المتوفى، وقيل هو يوم القيامة حين يسيرون بهم إلى النار، قوله (وذوقوا عذاب الحريق) قاله الفراء، المعنى: ويقولون ذوقوا عذاب الحريق، والجملة معطوفة على يضربون، وقيل إنه يقول لهم هذه المقالة خزنة جهنم، والذوق قد يكون محسوساً، وقد يوضع موضع الابتلاء والاختبار، وأصله من الذوق بالفم.

والإشارة بقوله (ذلك) إلى ماتقدم من الضرب والعذاب والباء في (بما قدمت أيديكم) سببيه: أي ذلك واقع بسبب ما كسبتم من المعاصي واقترفتم من الذنوب، وجملة (وإن الله ليس بظلام للعبيد) في محل رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف: أي والأمر أنه لا يظلمهم، ويجوز أن تكون معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لقوله (ذلك) وهي (بما قدمت أيديكم)، أي ذلك العذاب بسبب المعاصي، وبسبب (أن الله ليس بظلام للعبيد)، لأنه سبحانه قد أرسل إلهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأوضح لهم السبيل، وهداهم النجدين كما قال سبحانه ﴿ **وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾.

قوله ﴿ كدأب آل فرعون ﴾ لما ذكر الله سبحانه ما أنزل بأهل بدر ابتعه بما يدل على أن هذه سنته في فرق الكافرين، والدأب:العادة، والكاف في محل الرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف: أي دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون ﴿ والذين من قبلهم ﴾ المعنى: أنه جوزي هؤلاء كما جوزي أولئك، فكانت العادة في عذاب هؤلاء كالعادة الماضية لله في تعذيب طوائف الكفر، وجملة قوله ﴿ **كفروا بآيات الله** ﴾ مفسرة لدأب آل فرعون: أي دأبهم هذا هو أنهم كفروا بآيات الله، فتسبب عن كفرهم أخذ الله سبحانه لهم، والمراد بذنوبهم: معاصيهم المترتبة على كفرهم، فيكون الباء في (بذنوبهم) للملابسة: أي فأخذهم متلبسين بذنوبهم غير تائبين

عنها، وجملة ﴿ إن الله قوي شديد العقاب ﴾ معترضة مقررة لمضمون ما قبلها.

(والإشارة بقوله ﴿ ذلك ﴾ إلى العقاب الذى أنزله الله بهم، وهو مبتدأ وخبره ما بعده، والجملة جارية مجرى التعليل لما حل بهم من عذاب الله، والمعنى: أن ذلك العقاب بسبب أن عادة الله فى عباده عدم تغيير نعمه التى ينعم بها عليهم ﴿ حتي يغيروا ما بأنفسهم ﴾ من الأحوال والأخلاق بكفران نعم الله وغمط احسانه واهمال أوامره ونواهيه وذلك كما كان من آل فرعون ومن قبلهم ومن قريش ومن يماثلهم من المشركين، فإن الله فتح لهم أبواب الخيرات فى الدنيا، ومن عليهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب، فقابلوا هذه النعم بالكفر فاستحقوا تغيير النعم كما غيروا ما كان يجب عليهم سلوكه والعمل به من شكرها وقبولها، وجملة ﴿ وإن الله سميع عليم ﴾ معطوفة على ﴿ بأن الله لم يك مغيرا نعمة ﴾ داخلة معها فى التعليل: أى ذلك بسبب أن الله لم يك مغيراً إلخ، وبسبب أن الله سميع عليم يسمع ما يقولونه ويعلم ما يفعلونه، وقرىء بكسر الهمزة على الاستئناف.

ثم قال: ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم ﴾: لقصد التأكيد مع زيادة أنه كالبيان للأخذ بالذنوب بأنه كان بالإغراق أو المراد أن الأول باعتبار ما فعله آل فرعون ومن شبه بهم، والثانى باعتبار ما فعل بهم، وقيل المراد بالأول كفرهم بالله وبالثانى تكذيبهم الأنبياء، وقيل غير ذلك الكلام فى ﴿ أهلكناهم بذنوبهم ﴾ كالكلام المتقدم فى فأخذهم الله بذنوبهم ﴿ وأغرقنا آل فرعون ﴾ معطوف على أهلكناهم عطف الخاص على العام لفظاعته وكونه من أشد أنواع الإهلاك، ثم حكم على كلا الطائفتين بالظلم من آل فرعون والذين من قبلهم، ومن كفار

قريش بالظلم لأنفسهم، بما تسببوا به لعذاب الله من الكفر بالله وآياته ورسله وبالظلم لغيرهم، كما كان يجرى منهم فى معاملاتهم للناس بأنواع الظلم[١].

**فى التحذير من غدر الكفار ووجوب إعداد القوة لمواجهتهم:**

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ ﴾: أى من يدب على وجه الأرض فى علم الله وحكمه.

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾: أى المصرون على الكفر شأنهم دائماً أنهم لا يؤمنون.

﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ ﴾: أى لا يخافون الانتقام فهم ينقضون أى معاهدة تقع بين المسلمين وبينهم ولا يتورعون عن ذلك.

---

(١) بتصرف من تفسير فتح القدير للشوكانى وانظر تفسرى الفخر الرازى.

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ ﴾: أى حين تأسرهم وتجعلهم فى ثقاف، أو تلقاهم بحال ضعف تقدر عليهم فيها تغلبهم، وهذا لازم من اللفظ، لقوله فى الحرب.

﴿ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ ﴾: قال الزجاج افعل بهم فعلاً من القتل تفرق بهم من خلفهم، يقال شردت بنى فلان: قلعتهم عن مواضعهم وطردتهم عنها حتى فارقوها قال الشاعر من هذيل:

**أطوف فى الأباطح كل يوم**
**مخافة أن يشرد بن حكيم**(١)

وقال الضحاك : نكل بهم، وقال سعيد بن جبير: انذر بهم من خلفهم.

﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أى يتذكرون بوعدك إياهم، وقيل هذا يرجع إلى من خلفهم.

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ﴾ أى غش ونقض للعهد من القوم المعاهدين.

﴿ فَانبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾: أى رد العهد الذى بينك وبينهم والمفعول محذوف تقديره فانبذ إليهم عهدهم.

﴿ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾: على وجه يستوى فى العلم بالنقض أقصاهم وأدناهم، أو تستوى أنت وهم فيه، قال الكسائى: السواء: العدل، وقد يكون بمعنى الوسط.

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ﴾ : أى لا تظن أنهم فاتوا ونجوا بأنفسهم.

---

(١) معنى القرآن للزجاج.

﴿ إنهم لا يعجزون ﴾ : أى لا ينجوا فى الدنيا ولا فى الآخرة.

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ﴾ : أمر الله سبحانه وتعالى بإعداد القوة للأعداء، وكل ما تعده لصديقك من خير أو لعدوك من شر فهو داخل فى عدتك.

﴿ ومن رباط الخيل ﴾ : قال الزمخشرى: الرباط اسم للخيل التى تربط فى سبيل الله، وقال ابن عطية: رباط الخيل جمع ربط أو مصدر.

﴿ ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ : يعنى تخيفون به عدوكم من الكفار.

﴿ وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ : آخرين معطوف على ﴿ عدو الله ﴾ داخل معه فى حيز المفعولية ﴿ ترهبون ﴾ والعلم هنا بمعنى المعرفة ولذلك تعدى إلى مفعول واحد.

﴿ وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم ﴾ : أى الانفاق فى جميع وجوه الخير والجهاد فيه انفاق أساسى، والكلام على تقدير مضاف، أى: يوف إليكم جزاؤه كاملاً.

﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ : بترك الاثابة على انفاقكم(١).

## مناسبة الآيات لما قبلها:

الآيات السابقة ختمت بقول الله تعالى ﴿ وكل كانوا ظالمين ﴾ تعبيراً عن ملة الكفر بوجه عام فكان من المناسب هنا فى هذه الآيات بيان وتفصيل بعض أنواع هذا الظلم حتى يتبين للمسلمين كيفية التعامل مع هؤلاء الظالمين وهو ماطرحه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. ﴾.

---

(١) راجع تفسير أبو السعود - تفسير الألوسى - والتسهيل لعلوم التنزيل - وتفسير فتح القدير.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

فى هذه الايات استئناف من الله سبحانه وتعالى انتقل به من الكلام على عموم المشركين إلى ذكر كفار آخرين بينهم بقوله: ﴿ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ ﴾ الآية وهؤلاء عاهدوا النبى ﷺ وهم على كفرهم، ثم نقضوا عهدهم؛ وهم مستمرون على الكفر، وإنما وصفهم (بشر الدواب) لأن دعوة الإسلام أظهر من دعوة الأديان السابقة، ومعجزة الرسول ﷺ أسطع، ولأن الدلالة على أحقية الإسلام دلالة عقلية بينة، فمن يجحده فهو أشبه بما لا عقل له وقد اندرج الفريقان من الكفار فى جنس ﴿ شَرَّ الدَّوَابِ ﴾.

وتقدم آنفاً الكلام على نظير قوله ﴿ **إن شر الدواب عند الله الصم البكم** ﴾ الآية.

وعن ابن عباس وقتادة: إن المراد بالذين نقضوا العهد قريظة فإنهم عاهدوا النبى ﷺ - أن لا يحاربوه، ولا يعينوا عليه عدوه، ثم نقضوا عهدهم فأمدوا المشركين بالسلاح والعدة يوم بدر، واعتذروا فقالوا: نسينا وأخطأنا، ثم عاهدوه أن لا يعودوا لمثل ذلك فنكثوا عهدهم يوم الخندق، ومالوا مع الأحزاب وأمدوهم بالسلاح والأدراع(١).

والأظهر عندى أن يكون المراد بهم قريظة وغيرهم من بعض قبائل المشركين، أخصها المنافقون فقد كانوا يعاهدون النبى ﷺ ثم ينقضون عهدهم كما قال ﴿ **وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم** ﴾ الآية، وقد نقض عبدالله بن أبى ومن معه عهد النصرة فى أحد، فانخزل بمن معه وكانوا ثلث الجيش، وقد ذكر فى أول السورة براءة عهد فرق من

---

(١) تفسير ابن كثير.

المشركين، وهذا هو الأنسب بإجراء صلة الذين كفروا عليهم لأن الكفر غلب فى اصطلاح القرآن اطلاقه على المشركين.

والتعبير، فى جانب نقضهم للعهد بصيغة المضارع: للدلالة على أن ذلك يتجدد منهم ويتكرر، بعد نزول هذه الآية، وأنهم لا يستهون عنه فهو تعريض بالتأييس من وفائهم بعهدهم، ولذلك فرع عليه قوله ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ إلخ، فالتقدير: ثم نقضوا عهدهم وينقضونه فى كل مرة.

ثم كان بعد ذلك من أمر الله لرسوله ﷺ بالاغلاظ على العدو ﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ .. ﴾ الآية لما فى ذلك من مصلحة ارهاب أعدائه، فإنهم كانوا يستضعفون المسلمين، فكان فى هذا الاغلاظ على الناكثين تحريض على عقوبتهم، لأنهم استحقوها، وفى ذلك رحمة لغيرهم لأنه يصد أمثالهم عن النكث ويكفى المؤمنين شر الناكثين الخائنين، فلا تخالف هذه الشدة كون الرسول ﷺ أرسل رحمة للعالمين لأن المراد أنه رحمة لعموم العالمين وإن كان ذلك لا يخلو من شدة على قليل منهم كقوله تعالى ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾(١).

ثم يعطف الله تعالى حكم عام لمعاملة جميع الأقوام الخائنين بعد الحكم الخاص بقوم معينين الذين تلوح منهم بوارق الغدر والخيانة، بحيث يبدو من أعمالهم ما فيه مخيلة بعدم وفائهم فأمره الله أن يرد إليهم عهدهم، إذ لا فائدة فيه وإذ هم ينتفعون من مسالمة المؤمنين لهم، ولا ينتفع المؤمنون من مسالمتهم عند الحاجة.

**يقول الله تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً ... ﴾ الآية.**

---

(١) تفسير التحرير والتنوير.

ويثور تساؤل عن ترتيب نبذ العهد على خوف الخيانةدون وقوعها؟: وذلك لأن شئون المعاملات السياسية والحربية تجرى على حسب الظنون ومخائل الأحوال ولا ينتظر تحقق وقوع الأمر المظنون لأنه إذا تريث ولاة الأمور فى ذلك يكونون قد عرضوا الأمة للخطر، أو للتورط فى غفلة وضياع مصلحة، ولا تدار سياسة الأمة بما يدار به القضاء فى الحقوق، لأن الحقوق إذا فاتت كانت بليتها على واحد، وأمكن تدارك فائتها، ومصالح الأمة إذا فأتت تمكن منها عدوها، فلذلك علق نبذ العهد بتوقع خيانة المعاهدين من الأعداء[١].

ثم يطمئن اله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ على ما فعله به أعداءه سواء من الخيانة والغدر كما فعل اليهود أو ما فعله أهل النفاق من أتباع عبدالله ابن أبى بن سلول وغيرهم من فلول المشركين الناجين يوم بدر لأن الله لن يترك المسلمين دون رعايته ولن يفلت هؤلاء الكفرة الخائنين لخيانتهم، والذين كفروا هم أقل وأضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم وأعجز وأحط شأناً من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم.

﴿ ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا، أنهم لا يعجزون ﴾.

ولكن الإسلام يتخذ للنصر عدته الواقعية التى تدخل فى طوق العصابة المسلمة، فهو لا يعلق أبصارها بتلك الآفاق العالية إلا وقد أمن لها الأرض الصلبة التى تطمئن عليها أقدامها، هيأ لها الأسباب العملية التى تعرفها فطرتها وتؤيدها تجاربها، وإلا إذا أعدها هى للحركة الواقعية التى تحقق هذه الغايات العلوية، فالاستعداد بما فى الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب.

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ .

ولكن ما هى حدود التكليف بإعداد القوة ؟

هى حدود الطاقة إلى أقصاها بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل فى طاقتها .

ويخص ﴿ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ لأنه الأداة التى كانت عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة .. ولو أمرهم بإعداد أسباب لا يعرفونها فى ذلك الحين مما سيجد من الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - والمهم هو عموم التوجيه :
﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ .

يقول الشهيد سيد قطب فى ظلال القرآن كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة :

﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ .

فهو إلقاء الرعب والرهبة فى قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة فى الأرض، الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون، ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم، أو لم يجهروا لهم بالعداوة، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم، وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم، والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء» وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين فى الأرض، ولتكون كلمة الله هى العليا، وليكون الدين كله لله . ا هـ .

ولابد من انفاق الأموال فى سبيل إعداد العدة والدعوة إلى الجهاد تقترن بالدعوة إلى انفاق المال فى سبيل الله فعن ابن مسعود الأنصارى،

قال: (جاء رجل بناقة مخطومة، فقال يارسول الله.. هذه في سبيل الله فقال ﷺ: (لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة)[(١)].

والرسول ﷺ في هذا الحديث يرسم صورة لناحية خاصة من نواحي الجهاد هي الجهاد بالمال أو التجهيز - ويبين ثواب هذا اللون من ألوان الجهاد.

ويقول مكحول: في تفسير قول الله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[(٢)]. المراد بالانفاق: الانفاق في الجهاد من الإعداد والاستعداد ويؤيد حديث الناقة المخطومة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ ليلة الإسراء سار وسار معه جبرائيل عليه السلام.. فأتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان.. فقال: يا جبرائيل.. من هؤلاء؟

قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله.. تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف.. ﴿وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه﴾[(٣)].

## في أحكام السلم:

﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ

---

(١) رواه مسلم والمخطومة مالها زمام تقادبه.

(٢) سورة البقرة آية: ٢٦١.

(٣) رواه البزار.

بنصْره وَبالْمُؤْمنينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبهمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا في الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

## معانى المفردات:

﴿وإن جَنَحُوا﴾ : أى مالوا.

﴿للسَّلْمِ﴾ : أى المسالمة والمهادنة والمصالحة.

﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ : أى أقبل منهم ذلك.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ : فإنه تعالى كافيك وناصرك.

﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ﴾ : بهذا الصلح وفى باطنهم.

﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ : سيكفيك أمر غدرهم.

﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: أى جمعها على الإيمان بك وعلى طاعتك.

﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: أى لما كان بينهم من العداوة والبغضاء، ولعل دراسة متأنية لأخبار حروب العرب فى الجزيرة العربية قبل الإسلام تشرح لنا هذه الآية بمعناها العميق والشعر الجاهلى فى المعارك بين القبائل فيه من التفصيل الكثير.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾: بعظيم قدرته وبديع صنعه.

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ : لا يغالبه مغالب ولا يستعصى عليه أمرمن الأمور.

﴿حَكِيمٌ﴾: فى تدبيره ونفوذ نهيه وأمره [1].

## مناسبة الآية لما قبلها:

انتقال من بيان أحوال معاملة العدو فى الحرب: من عدم وفائهم

---

(١) راجع فتح القدير للشوكانى وتفسير بن كثير.

بالعهد، وخيانتهم، وكيف يحل المسلمون معهم عهودهم أن خافوا خيانتهم، ومعاملتهم إذا ظفروا بالخائنين. والأمر بالاستعداد لهم، إلى بيان أحكام السلم أن طلبوا السلم والمهادنة، وكفوا عن حالة الحرب، فأمر الله المسلمين بأن لا يأنفوا من السلم وأن يوافقوا من سأله منهم.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

فى هذه الآيات نرى أن آية الأنفال تسمح بقبول الصلح، وقد ورد فيها الأذن للنبى ﷺ بذلك حتى وإن كانت نوايا الأعداء تتجه إلى جعل المسالمة خدعة تتم فيها تقوية جيوشهم، لأن المسلمين على الجانب الآخر مطالبون أيضاً بدوام الاستعداد أياً كان حال العدو وأياً كانت نيته وعند اللقاء فالله حسب المؤمنين وهو ناصرهم بعونه تعالى إذا استكملوا وسائل النصر وأعدوا له: ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴾.

فإذا قرأنا آية (محمد) وجدنا أنها تحذر المسلمين من التخاذل والهوان وقبول الدنية والدعوة إلى السلم، لكنها استعرضت الحال التى يرد فيها هذا التحذير وهو كونهم أعلى مكانة وأقوى استعداداً: ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾.

والنظرة السريعة تجد حالين متناقضين، فمرة يمكن للمسلمين أن يقبلوا الصلح ويقروا المهادنة، ومرة أخرى يمنعون من ذلك، وهذا ما دعا بعض العلماء إلى القول بأحد الرأيين فقط واعتبره الرأى النهائى ورتبه على نسخ إحدى الآيتين للأخرى.

فمن قال بإمكان قبول الصلح وبأن ذلك هو التشريع النهائى قال: إن

آية (الأنفال) ناسخة لآية (محمد)، ومن قال بامتناع المهادنة قال: (إن آية محمد ناسخة لآية الأنفال).

ولكن بإمعان النظر فى المسألة من خلال النصوص القرآنية ذاتها نجد أن الآيتين لم تردا على حال واحدة بل وردتا على حالين مختلفين، ومن ثم فلا داعى للقول بالنسخ، وعليه يمكن فهم مسألة مسالمة الأعداء، وهل هى أمر مقرر على طول الخط أو أنها فى وقت دون آخر.

فآية سورة الأنفال سمحت بقبول الصلح، ولكن بشروط يمكن وضعها من نص الآية:

أولها: أن يكون الداعى إليه هم الأعداء لا المسلمون.

ثانياً: أن يكون هذا الصلح أنسب للوضع العسكرى لإعادة بناء الجيش وتقويته والآية وإن لم تصرح بذلك فإنه يفهم من قرينة القبول التى تعتبر مرحلية بالنظر إلى طبيعة الجهاد الدائمة لرسم خريطة العالم وفق المنهج الإسلامى، وربما كان عدم الإفصاح للحفاظ علي عزة المسلمين وقوتهم وتنبيههم إلى ما ينبغى أن يكونوا عليه من قوة لا ما هم فيه بالفعل من ضعف.

ثالثاً: أن يكون الصلح عهداً موقوتاً، وقد نق الإمام الألوسى عن بعض العلماء أنه لا يجوز للإمام أن يهادن أكثرمن عشرة سنين اقتداء برسول الله ﷺ فإنه صالح أهل مكة هذه المدة، ثم أنهم نقضوا قبل انقضائها، وقد وردت الآيات بعد ذلك بأمر النبى ﷺ بتحريض المؤمنين على القتال.

أما آية سورة (محمد) فإنهامنعت المهادنة فى حالته حددتها أيضاً.

أولها: أن يكون المسلمون الذين يدعون إلى السلم ابتداء.

ثانياً: أن تكون دعوتهم إليه فى حالة قوتهم إذ لا مبرر له ﴿ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ ﴾ ثم أن قتالهم ليس قتالاً دنيوياً يهدف إلى التسلط وإنما هو جهاد لنشر الدين.

ثالثاً: أن يلحقهم الهوان بالدعوة إلى المهادنة التى لا مبرر لها: ﴿ فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ ﴾.

وبمقارنة ما فهم من الآيتين نجد أنه لا تعارض، وأن كل آية وردت فى حالة غير التى وردت فيها الأخرى، وأنها حالات تكمل بعضها بعض[1].

يقول الإمام الشوكانى فى تفسيره لسورة محمد:

واختلف أهل العلم فى هذه الآية هل هى محكمة أو منسوخة، فقيل إنها محكمة، وأنها ناسخة لقوله ﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ وقيل منسوخة بهذه الآية ولا يخفاك أنه لا مقتضى للقول بالنسخ، فإن الله سبحانه نهى المسلمين فى هذه الآية عن أن يدعوا إلى السلم ابتداءاً، ولم ينه عن قبول السلم إذا جنح إليه المشركون، فالآيتان محكمتان ولم يتواردا على محل واحد حتى يحتاج إلى دعوى النسخ أو التخصيص)[2].

ويبين الإمام ابن كثير الفهم السليم للآيتين ويوضح أيضاً عدم وجود تخصيص:

وقال مجاهد: نزلت فى بنى قريظة وهذا فيه نظر لأن السياق كله فى وقعه بدر وذكرها مكتنف لهذا كله، وقال ابن عباس ومجاهد وزيد بن أسلم وعطاء الخراسانى وعكرمة والحسن وقتادة: إن هذه الآية منسوخة

---

(١) المفهوم الإسلامى للحرب والسلام دكتور محمد السيد جبريل.

(٢) فتح القدير للشوكانى.

بآية السيف في براءة - قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر - الآية وفيه نظر أيضاً لأن آية براءة فيها الأمر بقتالهم إذا أمكن ذلك فأما إن كان العدو كثيفاً فإنه يجوز مهادنتهم كما دلت عليه الآية الكريمة وكما فعل النبى ﷺ يوم الحديبية فلا منافاة ولا نسخ ولا تخصيص والله أعلم)(١).

وهكذا تتضح قضية مسالمة الأعداء، ومتى تجوز، فإذا كان المسلمون فى قوة وجب الاستمرار فى الجهاد لنشر الدعوة، فلا صلح ولا إقرار على شرك، وإذا كان الأمر غير ذلك جاز قبول الصلح تحرفاً لقتال أو تحيزاً لفئة وتقوية للجيش وإعداداً لجولة أخرى(٢).

على أن قبول الصلح لا يعنى من قبل المسلمين استمراءاً له ولا استكانة إلى هذا الضعف الآمن، أو هذا الأمن الضعيف، المهدد كما يحدث للمسلمين الآن فى شرق العالم وغربه، بل على كل المسلمين أن يسهروا ليل نهار على تقوية جيوشهم وإعداد القوة المحاربة لعدوهم الذى هو عدو دينهم ليستأنفوا مرة أخرى مسيرة الجهاد فتحاً ونوراً ونشراً لهدى الله الذى أرسل به خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

أيضاً يلزم التنبيه إلى أن كل ما مر يكون فى حالة الجهاد التى تنطلق فيها جيوش المسلمين إلى خارج الأقطار الإسلامية لنشر الدعوة، أما إذا هدد الخطر أرض الإسلام نفسها ودهم العدو بلاد المسلمين، فالقتال عندئذ - كما قرر العلماء - يكون فرض عين على كل مسلم ومسلمة: الرجال والنساء حتى الشيوخ والأطفال تلك هى عزة الإسلام وعزة أهله(٣).

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) المفهوم الإسلامى للحرب والسلام.
(٣) المفهوم الإسلامى للحرب والسلام دكتور محمد السيد جبريل.
(٤) سورة المنافقون آية: ٨.

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾(١).

هذا ولما كان طلب السلم والهدنة من العدو قد يكون خديعة حربية، ليغروا المسلمين بالمصالحة ثم يأخذوهم على غرة، أيقظ الله رسوله لهذا الاحتمال فأمره بأن يأخذ الأعداء على ظاهر حالهم، ويحملهم على الصدق، لأنه الخلق الإسلامى، وشأن أهل المروءة، ولا تكون الخديعة بمثل نكث العهد، فإذا بعث العدو كفرهم على ارتكاب مثل هذا التسفل، فإن الله تكفل، للوفى بعهده، أن يقيه شر خيانة الخائنين، وهذا الأصل: وهو أخذ الناس بظواهرهم، شعبة من شعب دين الإسلام قال تعالى: ﴿ فأتموا إليهم عهدهم إلي مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾، وفى الحديث (آية المنافق ثلاث منها: وإذا وعد أخلف)، ومن أحكام الجهاد عن المسلمين أن لا يخفر للعدو بعهد.

والمعنى للآية ﴿ وإن يريدوا ن يخدعوك... ﴾ إلخ: أن كانوا يريدون من أظهار ميلهم إلى المسالمة خديعة فإن الله كافيك شرهم، وليس هذا مقام نبذ العهد الذى فى قوله ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ﴾ فإن ذلك مقام ظهور أمارات الخيانة من العدو، وهذا مقام اضمارهم الغدر دون إمارة على ما اضمروه.

ثم يضيف الله تعالى منة أخرى على الرسول ﷺ وهى التأليف بين قلوب المؤمنين، إذ جعل أتباعه متحابين وذلك أعون له على سياستهم، وأرجى لاجتناء النفع بهم، إذ يكونون على قلب رجل واحد، وقد كان العرب يفضلون الجيش المؤلف من قبيلة واحدة، لأن ذلك أبعد من حصول التنازع بينهم.

---

(١) سورة الحج آية: ٤٠.

وهو أيضاً منة على المؤمنين إذ نزع من قلوبهم الأحقاد والأحن، التى كانت دأب الناس فى الجاهلية، فكانت سبب التقاتل بين القبائل، بعضها مع بعض، وبين بطون القبيلة الواحدة، فلما آمنوا بمحمد ﷺ، انقلبت العداوة بينهم مودة كما قال تعالى ﴿واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا﴾، وما كان ذلك التآلف إلا بتقدير الله تعالى فإنه لم يحصل من قبل بوشائج الأنساب، ولا بتوفيق ذوى الألباب.

ولذلك استأنف بعد قوله ﴿وألف بين قلوبهم﴾ قوله ﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم﴾ استئنافاً ناشئاً عن مساق الامتنان بهذا الائتلاف، فهو بيانى، أى: لو حاولت تأليفهم ببذل المال العظيم ما حصل التآلف بينهم[1].

**من رعاية الله للمجاهدين:**

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

**معانى المفردات:**

**﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: فيه قولان:**

---

(١) التحرير والتنوير .

أحدهما: حسبك الله، وحسب من اتبعك، هذا قول أبى صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد، ومقاتل، والأكثرون.

الثانى: حسبك الله ومتبعوك، قاله مجاهد.

وأجاز الفراء والزجاج الوجهين.

﴿ حَرِضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾: قال الزجاج: تأويله حثهم.

وتأويل التحريض فى اللغة: أن يحث الإنسان على الشىء حثاً يعلم معه أن حارض أن تخلف عنه. والحارض: الذى قد قارب الهلاك.

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ﴾ : لفظ هذا الكلام لفظ خبر ومعناه الأمر والمراد: يقاتلوا مائين[١].

﴿ مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : بيان الألف.

﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾: متعلق بيغلبوا أى بسبب جهلهم بالله تعالى وباليوم الآخر فلا يدركون ما يفقهه المؤمنون من القتال احتساباً وامتثالاً لأمر الله تعالى.

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ﴾: حيث أن ثباتهم الأول كان بمشقة شديدة ومعاناة.

﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يغلبوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾: بيان من الله تعالى للتخفيف الذى أجراه لجند المسلمين فى معاركهم مع أعدائهم من الكفار وهذا أيضاً كالبشارة لهم بالنصر وتمكنهم من الغلبة على الأعداء حتى لو كان عددهم أقل وذلك من قوله تعالى ﴿ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾.

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ : وفيه من الترغيب فى خلق الصبر والتأكيد عليه وبيان أنه من أسباب النصر والظفر لأن معية الله لابد أن تقتضى الغلبة للمسلمين على الكافرين.

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

استئناف ابتدائى بالإقبال على خطاب الرسول ﷺ بأوامر وتعاليم عظيمة، مهد لقبولها وتسهيلها بمامضى من التذكير بعجيب صنع الله والامتنان بعنايته برسوله وبالمؤمنين، وإظهار أن النجاح والخير فى طاعته وطاعة الله، من أول السورة إلى هنا، فموقع هذه الآية بعد التى قبلها كامل الاتساق والانتظام، فإنه لما أخبره بأنه حسبه وكافيه، وبين ذلك بأنه أيده بنصره فيما مضى وبالمؤمنين، فقد صار للمؤمنين حظ فى كفاية الله تعالى رسوله ﷺ فلا جرم أنتج ذلك أن حسبه الله والمؤمنون وتخصيص النبى بهذه الكفاية لتشريف مقامه بأن الله يكفى الأمة لأجله.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

هذه الآيات منذ بدايتها ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ... إلى .. وَاللَّهُ مع الصَّابِرِين ﴾ . دلالة واضحة على أهمية بعث الروح المعنوية أو إرادة القتال فى نفوس المجاهدين فهى تأكيد من الله سبحانه وتعالى للمعنى الذى أدركه المشركون على الحقيقة يوم بدر فيما رواه ابن اسحاق.

وبعث خفاف بن ايماء بن رخصة الغفارى إلى قريش حين مروا به ابنا له، بجزائر أهداها لهم، وقال: إن أحببتم أن نمدكم بسلاح ورجال فعلنا.. فأرسلوا إليه مع ابنه أن وصلتك رحم (لئنا كنا نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ولئن كنا إنما نقاتل الله كما يزعم محمد، فما لأحد بالله من طاقة)[1].

---

(١) سيرة ابن هشام .

وكلمة المشركين (فما لأحد بالله من طاقة) هى فى نفس الوقت الدلالة الكبرى لهذه الآيات أن الله حسيب وكافل وناصر للرسول ﷺ وأصحابه يتولاهم برعايته وعنايته وليس معنى ذلك نيابة الله فى القتال عنهم ولكن القوة المعنوية التى تبثها تلك الآيات بالإضافة لمعونة الله وإعداد القوة من جانب المسلمين كل هذا كفيل بالنصر وبمعية الله تعالى فى المعارك والقتال: ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾[١].

ويقول الشيخ محمود شلتوت: (فإذا وجدنا أنفسنا فى وقت ما مخذولين ووجدنا أعداءنا علينا متسلطين فليس لنا أن نشك فى وعد الله، ولكن علينا أن نسائل أنفسنا أين نحن من الإيمان وأين نحن من التضحية فى سبيل الله بالمال والمتاع والولد)[٢].

فيجب أن نفرق دائماً بين حقيقة الإيمان ومظهر الإيمان، أن حقيقة الإيمان قوة حقيقية ثابتة بثبوت النواميس الكونية ذات أثر فى النفوس وفيما يصدر عنها من حركات وأعمال، وهى حقيقة ضخمة هائلة كفيلة أن تواجه حقيقة الكفر المنعزله الميتوته وان تقهرها.

ولكن حين يتحول الإيمان إلى مظهر فان حقيقة الكفر تغلبه، إذا هى صدقت مع طبيعتها وعملت فى مجالها، لأن حقيقة اى شئ أقوى من مظهره ولو كانت هى حقيقة الكفر وكان هو مظهر الإيمان[٣] .

ومن مظاهر الإيمان الأساسية الثبات فى القتال وقد أمر الله المؤمنين أول الأمر أن يثبت الواحد منهم أمام عشرة من الكفار، ثم خفف عنهم فجعله يثبت لاثنين، وألزمه الصبر والثبات وحرم عليه الفرار منهما.

---

(١) سورة النساء آية: ١٤١.

(٢) تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت.

(٣) آيات الجهاد فى القرآن الكريم بحث متاز للدكتور كامل سلامة الدقس.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ... إلي... وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾.

يروى ابن هشام أن: (أبا عامر الأشعرى) قتل تسعة من المشركين مبارزة ثم حمل على العاشر فاستجار به فعفا عنه فأسلم(١).

وقد روى الطبرى وابن الأثير فى حوادث سنة ١٣هـ من أنه أحصى فى معركة (البويب) بالعراق مائة مسلم قتل كل منهم عشرة من جنود الفرس، ولهذا سموا أصحاب (الأعشار) كما سمى يوم المعركة يوم الأعشار(٢).

وقد ذكرنا هذه الروايات للدلالة على إمكانية حدوث ما ذكر فى القرآن الكريم بشأن أن يثبت الواحد من المسلمين أمام عشرة من الكفار قبل أن يخفف الله تعالى عنهم وبناء على هذا التخفيف يكون أمر الثبات فى القتال أمام الكفار من ألزم الأمور للمؤمن ولا تكون له حجة فى الفرار والتولى يوم الزحف دون أن تكون هناك فئة يتحيز إليها ولا متحرفاً لقتال.

وبما أن الثبات والتوكل على الله والإيمان بأنه هو الناصر والرازق فإن الغلبة تكون للمؤمن ضد الكافر وفى ذلك يقول النيسابورى: (بين الله سبب بالغلبة فقال: (بأنهم قوم لا يفقهون) أى بسبب أن الكفار جهلة لا يعرفون معاداً، وقد انحصرت السعادة عندهم فى هذه الحياة العاجلة، وأيضاً أنهم يعولون على قوتهم وشوكتهم، والمسلمون يتوكلون على ربهم ويستغيثونه، ويتوقعون منه انجاز ما وعد من النصر والتأييد)(٣).

ثم يقول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ وسلاح الصبر لابد منه للمجاهد وبدونه يكون عرضه للهزيمة والخسران، وحسبنا أن نعلم أن

---

(١) سيرة ابن هشام .
(٢) تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير.
(٣) غرائب القرآن.

أن كلمة الصبر ومشتقاتها قد وردت فى نحو مائة وعشرين آية: وهدف القرآن الكريم وهذه الآيات الكثيرة هو بث روح الجلد ورباطة الجأش وضبط النفس، وعدم الجزع والهلع عند حلول المصائب ووقع الشدائد. وذلك بأن الصبر يتجسد فى أخلاق كثيرة كلها واجبة لتحقيق النصر، فالشجاعة هى الصبر على مكاره القتال. ومواقف الحق والحلم هو الصبر على المنيرات والكمان هو الصبر على الحرمان والعفاف هو الصبر على الشهوات، فإذا رسخ هذا الخلق فى امرىء صار له من القوة المعنوية والشجاعة والجلد ما يمكنه من مواجهة الخطوب دون جزع وتحمل المشاق والرضا بالمكروه والحرمان فى سبيل الحق والكرامة، والعزوف عن الشهوات والمثابرة على المقاصد النبيلة مهما عسرت وطال أمدها. وغدا محل رضاء الله عز وجل والناس[1].

**فى أسرى بدر:**

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾: **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يبالغ فى القتل والغلبة على أعدائه من الكفار ويشتد فى ذلك.**

---

(١) الدستور القرآن.

﴿ تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ﴾ : عتاب لمن رغب فى فداء الأسرى.

﴿ والله عزيز حكيم ﴾ : وصفان لله عز وجل يتفقان مع السياق العام للمعانى من العزة والغلبة على الأعداد والحكمة فى توجيه المسلمين.

﴿ لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ : (أى لولا حكم منه تعالى فى سبق اثباته فى اللوح المحفوظ وهو إلا يعاقب المخطىء فى اجتهاده، أولاً يعذب أهل بدر، أو قوماً لم يصرح لهم بالنهى)[١] لولا هذا لأصابكم بسبب الفداء عذاب عظيم.

﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ : إباحة لهم بالنسبة للغنائم وفداء الأسرى.

﴿ واتقوا الله ﴾ : فيما يستقبل فلا تقدموا على شىء لم يأذن الله لكم فيه.

﴿ إن الله غفور ﴾ : لما فرط منكم.

﴿ رحيم ﴾ : بكم[٢].

## مناسبة الآيات لما قبلها:

استئناف ابتدائى مناسب لما قبله سواء نزل عقبه أم تأخر نزوله عنه فكان موقعه هنا بسبب موالاة نزوله لنزول ما قبله أو وضع الآية هنا بتوقيف خاص والمناسبة ذكر بعض أحكام الجهاد وكان أعظم جهاد مضى هو جهاد يوم بدر لا جرم نزلت هذه الآية بعد قضية فداء أسرى بدر مشيرة إليها.

---

(١) تفسير أبو السعود.

(٢) فتح القدير للشوكانى.

**سبب النزول:**

روى الواحدى فى سبب نزول الآية: عن مجاهد: كان عمر بن الخطاب يرى الرأى فيوافق رأيه ما يجيء من السماء، أن رسول الله ﷺ استشار فى أسارى بدر، فقال المسلمون: يارسول الله بنو عمك أفدهم، فقال عمر: لا يارسول الله اقتلهم، قال: فنزلت هذه الآية.

وقال ابن عباس عن عمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم بدر والتقوا، فهزم الله المشركين وقتل منهم سبعون رجلاً وأسر منهم سبعون رجلاً - استشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعليا، فقال أبو بكر: يانبى الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم للإسلام، فيكونوا لنا عضدا، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قال: قلت: والله ما أرى، ما رأى أبو بكر ولكن أرى أن تمكننى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حتى يعلم الله عز وجل أنه ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فأخذ منهم الفداء. فلما كان فى الغد قال عمر: غدوت إلى النبى ﷺ، فإذا هو قاعد وأبو بكر الصديق وإذا هما يبكيان، فقلت: يارسول الله، أخبرنى ما يبكيك أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما. فقال النبى ﷺ: أبكى للذى عرض على أصحابك من الفداء، لقد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة - وأنزل الله عز وجل: ما كان لنبى ان يكون له أسرى إلى قوله:

﴿ **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم** ﴾ من الفداء (عذاب عظيم)[١] .

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

**فى الأسرى:**

يقول القرطبى: الأسير مشتق من الأسار، وهو القيد الذى يشد به المحمل فسمى أسيراً لأنه يشد وثاقه، والعرب تقول: قد أسر قتبه، أى شده، ثم سمى كل أخيذ أسيراً وإن لم يؤسر لأنهم كانوا يشدون الأسير بالقيد وهو الأسار[٢].

وقال الراغب[٣]: الأسر الشد بالقيد من قولهم: أسرت القتب وسمى الأسير بذلك ثم قيل لكل مأخوذ ومقيد وإن لم يكن مشدوداً ذلك، وقيل فى جمعه أسارى وأسارى وأسرى والأسر مشروع فى الإسلام لقوله تعالى: ﴿ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ ﴾[٤] ولقوله تعالى: ﴿ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ ﴾[٥] والأسر قد يكون بغير قتال، مثل أن تلقى السفينة شخصاً من الكفار إلى ساحل بلاد المسلمين أو يضل أحدهم الطريق أو يؤخذ بحيلة[٦].

**الرفق بالأسرى:**

يقول أبو يوسف: (والأسير من أسرى المشركين لابد أن يطعم ويحسن إليه حتى يحكم فيه)[٧].

---

(١) رواه مسلم.
(٢) تفسير القرطبى.
(٣) المفردات الراغب.
(٤) سورة التوبة آية: ٥.
(٥) سورة محمد آية: ٤.
(٦) السياسة الشرعية لابن تيمية.
(٧) الخراج.

وقد نص الفقهاء على أنه لا يجوز تعذيب الأسير بالجوع والعطش وغير ذلك، وقد روى أن رسول الله ﷺ كان يأمر بأحمال التمر فتنثر على بنى قريظة وكان يقول لأصحابه: (أحسنوا أسارهم وقيلوهم واسقوهم لا تجمعوا عليهم حر الشمس وحر السلاح)(١).

وقد وقع ثمامة بن أثال أسيراً فى أيدى المسلمين وجاءوا به رسول الله ﷺ فقال: (أحسنوا أساره، ورجع رسول الله إلى أهله، فقال: اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه، وأمر بلقحته أن يغدى عليه بها ويراح)(٢).

وكان النبى ﷺ فيما يروى نبيه بن وهب فى أسرى بدر يقول: (استوصوا بالأسرى خيراً)(٣).

ويسوق لنا الدكتور كامل سلامة الدقس بحثاً ممتازاً عن مصير الأسرى يمثل تفسير هذه الآية بكل معانيها فى كتابه (آيات الجهاد فى القرآن الكريم) يقول:

**أما مصير الأسرى:**

فقد نصت اتفاقية جنيف بوجه خاص أن أسير الحرب يعتبر أسيراً للدولة لا أسيراً للشخص أو الوحدة العسكرية التى أخذته(٤).

وقد سبق الإسلام إلى هذا الحكم وجعل حق تقرير مصير الأسير بيد إمام المسلمين لا بيد آسره قال كمال بن الهمام: ليس لواحد من الغزاة أن يقتل أسيراً بنفسه لأن الرأى فيه إلى الإمام»(٥).

---

(١) شرح السير الكبير.
(٢) سيرة ابن هشام.
(٣) البداية والنهاية ومنتخب كنز العمال من مسند أحمد.
(٤) القانون الدولى العام/ ٦٧٩ أبو هيف.
(٥) فتح القدير ٤/ ٣٠٦ وانظر المبسوط للسرخسى ١٠/ ٦٤ والأم للشافعى ٤/ ١٩٩.

وقد بين القرآن الكريم شروط الأسر بصراحة تامة فى أول آية نزلت فى شأن الأسرى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

وواضح من الآية الكريمة أنها لا تنص من قريب أو بعيد على مصير الأسرى ولكنها تحدد شرط الأسر. ولهذا استشار النبى عليه الصلاة والسلام أصحابه فى مصير الأسرى، ولو كان نزل تشريع فى شأنهم لما استشار أحداً.

روى الواحدى والطبرى وابن كثير والقرطبى والزمخشرى وغيرهم أن هذه الآية نزلت فى شأن أسرى بدر قالوا: (لما كان يوم بدر جيء بالأسارى، وفيهم العباس، فقال رسول الله (ما ترون فى هؤلاء الأسارى؟) فقال أبو بكر: يارسول الله قومك وأهلك، استبقهم لعل الله يتوب عليهم. وقال عمر: كذبوك وأخرجوك، وقاتلوك، قدمهم، فأضرب أعناقهم. وقال عبدالله بن رواحة: يارسول الله، انظر ودايا كثير الحطب، ثم اضرمه عليهم ناراً، فقال العباس وهو يسمع: قطعت رحمك.

فسكت رسول الله فلم يجبهم، ثم دخل. وقال أناس: يأخذ بقول أبى بكر وقال أناس يأخذ بقول عمر. وقال أناس يأخذ بقول عبدالله بن رواحة. ثم خرج رسول الله، فقال «إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون الين من اللبن وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة: وإن مثلك يا أبا بكر، مثل ابراهيم، قال: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢). ومثل عيسى إذ قال ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ

---

(١) الأنفال: ٦٧.

(٢) سورة إبراهيم آية: ٣٦.

لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾[١]. ومثلك ياعمر مثل نوح إذ قال: ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ﴾[٢].

وقال رسول الله : (أنتم اليوم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضربة عنق).

فأنزل الله عز وجل: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى .. ﴾ .. إلى آخر الآيتين. فقال النبى عليه الصلاة والسلام «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد ابن معاذ لقول سعد: يانبى الله كان الاثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال»[٣]. أما شرط الزسر فقد حدده قوله تعالى: ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ﴾ أى حتى يكثروا القتل فى أعداء الله فيقوى بأسهم ويشتد أمرهم، ويعظم شأنهم.

وقد ذكر معظم المفسرين[٤] أن معنى الاثخان فى الأرض المبالغة فى القتل والاكثار منه وقالوا الاثخان فى كل شىء عبارة عن قوته وشدته. والمعنى حتى يبالغ فى قتل المشركين ويغلبهم ويقهرهم فإذا حصل ذلك فله أن يقدم على الأسر. وقيل معناه التمكن والقهر حتى تظهر شوكة المسلمين وقوتهم ويذل الكفار ولا يخشى بأسهم.

وقال النيسابورى[٥]: ﴿ حتى يثخن في الأرض ﴾ هذا يدل على أن

---

(١) سورة المائدة: ١١٨.

(٢) سورة نوح آية: ٢٦.

(٣) أسباب النزول للواحدى/ ١١٦ وتفسير الطبرى ٦١/٤ وتفسير القرطبى ٤٧/٨ وتفسير ابن كثير ٢٢٥/٢ والخازن ٤٠/٣ وتفسير الزمخشرى ١٦٨/٢.

(٤) تفسير القرطبى ٤٥/٨ والكشاف ١٦٨/٢ وفتح القدير ٣١٠/٢ والفتوحات الإلهية ٥٧/٢ وأنوار التنزيل ٢٣٥/١ والخازن ٥٢/٣.

(٥) غرائب القرآن ٢٨/١٠.

الأسر كان مشروعاً ولكن بشرط سبق الاثخان، ولا شك أن الصحابة قتلوا يوم بدر خلقاً كثيراً، فظنوا أن ذلك القدر من القتل بلغ حد الاثخان، فأخطأوا فى الاجتهاد).

ورأى القرطبى[١] قريب من هذا الرأى (والنبى ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب، ولكنه عليه السلام شغله بغت الأمر ونزول النصر فترك النهى عن الاستبقاء). فلابد من تقديم الاثخان ثم بعده الأسر. على أن للاثخان فى الأرض - أى للتمكن والقوة وعظمة السلطان فيها - سببين لا سبباً واحداً. أحدهما: الاستعداد التام للقتال، وهو الذى يرهب الأعداء. والثانى: تقتيل الأعداء فى الحروب، وهو الذى يمكن للمنتصر فى الأرض، ومن أجل هذا قال تعالى ﴿ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ولم يقل (حتى يثخن فى القتل).

فإن من المجريات التى لا شك فيها أن الاثخان فى قتل الأعداء فى الحرب سبب من أسباب الاثخان فى الأرض، أى التمكن والقوة وعظمة السلطان فيها[٢].

فإذن شرط الأسر هو كثرة القتل فى الأعداء وقهرهم حتى لا يقدروا على مقاومة المسلمين بعد ذلك ليتمكن سلطان الإسلام ويرهب جانبه.

ولذلك قال تعالى معاتباً المسلمين بقوله ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ وذلك على قبولهم الفدية من المشركين وهو الذى لا يصح غيره على حد تعبير القرطبى[٣].

---

(١) تفسير القرطبى ٨/٤٦.

(٢) تفسير سورة الأنفال/ ١٨٠ وتفسير المنار ١٠/٨٤.

(٣) تفسير القرطبى ٨/٤٦.

قال ابن عباس (كان هذا يوم بدر والمسلمون يومئذ قليل، فلما كثروا واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل بعد هذا فى الأسارى ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾. وكلام ابن عباس هذا يوهم أن مقتضى الآيتين مختلف، وليس كذلك فإن كلتيهما تدل على أنه لابد من تقديم الاثخان على الفداء[١].

وهذا ما قاله الرازى واستشهد برأيه صاحب الفتوحات الإلهية: قال الرازى: (إن المراد من الاية حصول الأسر لغرض أخذ الفداء، وذلك لا يدل على أن أخذ الفداء محرم مطلقا). وقال القرطبى[٢]:، (إنما عوتبوا لأن قضية بدر كانت عظيمة الموقع والتصريف فى صناديد قريش وأشرافهم وساداتهم وأموالهم بالقتل والاسترقاق والتملك. وذلك كله عظيم الموقع فكان حقهم أن ينتظروا الوحى ولا يستعجلوا، فلما استعجلوا توجه إليهم ما توجه). والذى أراه أن الآية نصت صراحة على شروط الاثخان أولاً قبل الإقدام على الأسر ومما ثبت ثانياً لاكثارهم من الأسرى وتقليلهم من القتل لأجل الحصول على الفداء لا لأنهم قبلوا الفداء بعد اتخاذ الأسرى. وهذا الرأى يؤيد قول الله تعالى فى سورة القتال ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾[٣].

قال سعيد بن جبير: لايكون فداء ولا أسر إلا بعد الاثخان والقتل بالسيف[٤]. فإننا نرى أن شرط الأسر فى السورتين هو ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن

---

(١) غرائب القرآن ٢٨/١٠.

(٢) تفسير القرطبى ٤٦/٨.

(٣) سورة محمد: ٤.

(٤) تفسير القرطبى ٢٢٨/١٦.

يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ وقوله ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ﴾.

فالاثخان شرط أساسى لاتخاذ الأسرى.

أما مسألة عتابهم على قبول الفداء ففيها نظر لقوله تعالى ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيبا ﴾[١]. فلو كان أخذ الفداء محرماً، وكان العقاب من أجل قبوله لما نزلت هذه الآية عقب قوله تعالى ﴿ تريدون عرض الدنيا ﴾ مباشرة. وإنما كان العتاب كما يقول ابن كثير على الاستكثار من الأسارى يوم بدر ليأخذوا منهم الفداء من القتل يومئذ»[٢] ويؤيد هذا ما روته كتب التفسير وأسباب النزول عن سعد بن معاذ رضى الله عنه حين أخذ المسلمون يأسرون المشركين، نظر رسول الله إلى سعد فرأى فى وجهه الكراهية لما يصنعون فقال: لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم، قال: أجل - والله يارسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله - بأهل الشرك، فكان الاثخان فى القتل أحب إلى من استبقاء الرجال».

ولهذا قال رسول الله «لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ»[٣]. أما قوله تعالى ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾ فهو النص الوحيد فى كتاب الله الذى يتعلق بحكم الأسرى. فالله سبحانه يخير ولى أمر المسلمين وحاكمهم العادل بين أمر لا ثالث لهما لأن (أما) تفيد التخيير والحصر[٤]. ﴿ فإما منا بعد وإما فداء ﴾. ولم يقل قتلاً أو استرقاقاً، لأن ذلك خارج عن معنى التخيير.

وكان الحسن وعطاء وسعيد بن جبير يكرهون قتل الأسير وقالوا لو

---

(١) سورة الأنفال : ٦٩.

(٢) تفسير ابن كثير ١٧٣/٤.

(٣) كتب التفسير السابقة وصر من حياة الرسول /٣١٥.

(٤) تفسرى الرازى ٣٦٣/٧ يقول (أما) تفيد الحصر مثل [إنما].

من عليه أو فاداه كما صنع رسول الله بأسارى بدر لأن الله قال ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ فخير بين هذين بعد الأسر لاغير[١].

وقال الترمذى[٢]: العمل عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام أن للإمام أن يمن على من يشاء من الأسارى».

وكان الحسن رضى الله عنه يكره قتل الأسير إلا فى الحرب ليهيب به العدو. وحماد بن أبى سلمة رحمه الله كان يكره قتل الأسير بعدما وضعت الحرب أوزارها. وجملة قولهما إن إباحة القتل لدفع محاربتهم.

قال الله تعالى ﴿ فإن قاتلوكم فاقتلوهم ﴾ وقد اندفع ذلك بالأسر والنقضاء الحرب فليس فى القتل بعد ذلك إلا ابطال حق المسلمين بعدما ثبت فى رقابهم وذلك لا يجوز. واستدلوا على ذلك بما روى أن عبدالله ابن عامر بعث إلى ابن عمر رضى الله عنهما بأسير ليقتله فقال: أما والله مصرورا فلا أقتله.. يعنى بعدما شددتموه وأسرتموه فلا أقتله. واستشهدوا بآية ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ.. ﴾ وقالوا إنما أمرنا الله بالقتال إلى غاية الأسر، ثم جعل الحكم بعد ذلك المن أو الفداء[٣].

وقال الشيعة الإمامية[٤] إن أخذ الأعداء بعد انقضاء الحرب لم يقتلوا واستدلوا بنفس الدليل الذى استدل به الحسن رضى الله عنه.

وإذا تتبعنا صنع رسول الله ﷺ فى الأسرى فى سائر غزواته لوجدنا أنه قال فى شأن أسارى بدر (لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له) أى لأطلقتهم له بغير فداء مكافأة له على

---

(١) المغنى لابن قدامة ٩/٢٠٤.

(٢) جامع الترمذى ٢/٣٨٦.

(٣) السير الكبير ٢/١٠٢٤ تحقيق صلاح الدين المنجد مصرورا: أى موثوقاً مربوطاً).

(٤) الروضة البهية ١/٢٢٢.

احسانه فى السعى فى نقض الصحيفة التى كتبتها قريش فى أن لا يبايعوا الهاشمية والمطلبية ولا يناكحوهم[١].

فقد من الرسول على أبى عزة الشاعر (عمرو بن عبدالله بن عمير الجمحى) إذ قال لرسول الله: لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدق بى عليهن يا محمد، وإنى معك موثقاً لا أقاتلك ولا أكثر عليك أبداً، فأمنه النبى وأرسله من غير فداء[٢].

وقد نال المن بفداء أبو العاص بن الربيع ثم رده عليه، وكانت تلك المعاملة الرقيقة سبباً فى إسلامه[٣] ومن رسول الله على ثمامة بن اثال الحنفى سيد أهل اليمامة. قال له رسول الله ما رواءك يا ثمامة؟ فقال: إن عاقبت ذا ذنب، وإن مننت مننت على شاكر، وإن أردت انفق فعندى من المال ما شئت، فمن رسول الله عليه بشرط أن يقطع الميرة عن أهل مكة، ففعل حتى قحطوا.

وقد كانت هذه المعاملة الحسنة سبباً فى إسلامه وصدق إيمانه. فقد قال حين أعلن إسلامه لرسول الله لقد كان وجهك أبغض الوجوه إلى، ولقد أصبح أحب الوجوه إلى. وقال فى الدين والبلاد مثل ذلك[٤].

وقد سألت أم المنذر سلمى بنت قيس رسول الله رفاعة بن سموال

---

(١) شرح مسلم ٨٧/١٢ وسنن أبى داود ٧٦/٣ وسنن البيهقى ٣١٩/٦ ونيل الأوطار ٣٠٢/٧ والسير الكبير ١٠٢١/٣.

(٢) حياة محمد / ٢٧٢ هيكل.

(٣) حياة محمد / ٢٧٥ هيكل.

(٤) شرح مسلم ٨٧/١٢ وسنن أبى داود ٧٦/٢ وسنن البيهقى / ٣١٩ ونيل الأوطار ٣٠٢/٧ وسيرة ابن هشام ١٠٥٤/٤ والسير الكبير ١٠٣١/٣ تحقيق المنجد.

القرظى، فوهبه لها. ووهب رسول الله لثابت بن قيس بن شماس دم الزبير بن باطا القرظى وامرأته وولده وماله يوم مذبحة بنى قريظة[١].

وتزوج رسول الله جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار من سبايا بنى المصطلق، فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق إكراماً لصهر رسول الله، فما كانت امرأة أعظم بركة على قومها منها، كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها»[٢].

ومن رسول الله على أهل مكة يوم الفتح وقال لهم (اذهبوا فأنتم الطلقاء) وكذلك على من على أهل خيبر[٣].

ومن رسول الله على ثمانين رجلاً[٤] من أهل مكة هبطوا على النبى وأصحابه ليقتلوهم يوم الحديبية فأنزل الله فى شأنهم ﴿ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾[٥]. هذا، وقد نصت لائحة الحرب البرية أن من (أحوال) انتهاء الأسر، على ما يشبه المن فى الإسلام. فمن أحوال اطلاق الأسرى الاخراج بلا قيد ولا شرط، أو الاخراج تحت شرط وهو اطلاق سراح الأسير بعد كلمة الشرف على ألا يعود إلى حمل السلاح ضد الدولة التى أفرجت عنه، وليس من حق دولته الزامه بأى عمل يتنافى مع وعده، أو تقبل منه الاخلال بوعده إذا هو

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/٧٢٣ ـ ٧٢٤.
(٢) سيرة ابن هشام ٣/٧٦٢.
(٣) الأموال/ ١١٧.
(٤) معالم السنن للبستى ٢/٢٢٨ وسنن ابن داود ٣/١٨٢.
(٥) الفتح: ٢٤.

عرض الالتحاق بخدمة جيشه من جديد فإذا أخل بذلك حوكم وعوقب ولو بالإعدام[١].

وكل هذه النصوص معمول بها فى الشريعة الإسلامية كما ذكرت من الأمثلة السابقة. ومثال ذلك: أبو عزة الشاعر الذى من عليه رسول الله وشرط عليه إلا بظاهر على الرسول أحداً. ثم قدم مع المشركين فى أحد وحرض بشعره على قتال الرسول فلما أسره للمرة الثانية يوم (أحد) قال للرسول: يا محمد، إنما خرجت كرهاً، ولى بنات فأمنن على فقال رسول الله «أين ما أعطيتنى من العهد والميثاق لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول: سخرت بمحمد مرتين، ثم أمر بضرب عنقه»[٢].

وأمثلة قتل المخالف لشرط المن كثير منها أيضاً: أن زيد بن حارثة وعمار بن ياسر قتلا معاوية بن المغيرة بعد حمراء الأسد، كان لجأ إلى عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله فأمنه، على أن وجد بعد ثلاثة قتل، فأقام بعد ثلاث فوجداه فقتلاه[٣]. وقد ذكرنا أنه عليه الصلاة والسلام قد من على ثمامة بن أثال بشرط أن يقطع (الميرة) عن أهل مكة ففعل.

**فداء الأسرى أو مفاداتهم:**

وفداء الأسرى ومفاداتهم جائز بنص الآية ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ وبسنة رسول الله فى معاملة الأسرى.

---

(١) قانون الحرب والحياد/ ٢٨٠ للدكتور سامى جنينة والقانون الدولى العام / ٦٨١ أبو هيف طـ ١٩٥٩.

(٢) معالم السنن ٢ /٢٨٨ وسنن أبى داود ٢ /٨٣ وسيرة ابن هشام ٣ /١٠٤ تحقيق الأبيارى والسقا.

(٣) سيرة ابن هشام ٢ /١٠٥ تحقيق الأبيارى والسقا.

قال ابن قدامة[١] «ولنا فى جواز المن والفداء قوله تعالى: ﴿ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ وقد فادى رسول الله أسارى بدر وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً كل رجل منهم بأربعمائة درهم وفادى رجلين برجلين. وكان قبول الفداء هو رأى أبى بكر رضى الله عنه ليقوى المسلمون بمال الفداء[٢].

وجاء فى سنن الترمذى عن عمران بن حصين: أن رسول الله فدى رجلين من المسلمين برجل من الكفار[٣].

وورد عن سلمة بن الأكوع فيما أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجه - أنه وهب للرسول امرأة من سبى فزاره ففدى بهاناساً من المسلمين كانوا أسروا بمكة[٤].

وقال ابن جرير الطبرى: أجمع الفقهاء، أن لإمام المسلمين أن يفدى أسرى المسلمين من العدو بالعروض من النبات وغيره، غير السلاح والكراع[٥].

قال الترمذى[٦]: والعمل على هذا (أى جواز الفداء) عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبى ﷺ.

وقال أبو عبيد[٧]: وقد أفتى بالفداء غير واحد من العلماء.

---

(١) المغنى ٩/٢٠٤.
(٢) تفسير القرطبى ٨/٤٥.
(٣) سنن الترمذى ٤/١٣٥ وسنن البيقهى ٦/٣٢٠ و٩/٦٧.
(٤) شرح مسلم ١٢/٦٨ وسنن أبى داود ٢/٨٦ وسنن ابن ماجه ٢/١٠١ والمغنى ٨/٣٧٦.
(٥) اختلاف الفقهاء - شخت / ١٨٩.
(٦) جامع الترمذى ٢/٣٨٦ وشرح مسلم ١٢/٦٨ وسنن البيقهى ٦/٣٢٤.
(٧) الأموال/ ١٢١.

وقد جعل النبى فداء أسرى بدر ممن يعرفون الكتابة أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين الكتابة[١].

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة[٢] أما أن يمن القائد أو ولى الأمر من المسلمين على الأسرى بالحرية إذا لم يكن فداء من مال أو نفس، وأما أن يفتدى الأسرى بمال أو بأسرى مثلهم من المسلمين وهذا ما يسمى فى لغة العصر (تبادل الأسرى) وأن ذلك النوع من الفداء أولى بالاتباع لأن فيه اطلاق الحرية لطائفتين كبيرتين من بنى الإنسان مسلمين وغير مسلمين، فإن دين الحرية يقدر الحرية فى غير اتباعه كما يقدرها فى اتباعه إذا أن الداعى إلى الحرية، إذا كان حراً لا يخص بها إقليماً دون إقليم، ولا جنساً دون جنس، ولا ديناً دون دين، لأن الحرية كالماء والغذاء والهواء حق طبيعى لكل إنسان.

وهذا ما نص عليه القانون الدولى الحديث الذى قضى بتبادل الأسير مع زميل من جيش العدو، ويحصل ذلك باتفاق خاص بين المتحاربين يطلق عليه اسم (كارتل) وينص فيه على شروط هذا التبادل ويراعى فى التبادل عادة التكافؤ جريح بجريح، وجندى بجندى وضابط برتبة معينة بضابط من رتبة تقابلها[٣].

**قتل الأسير:**

قال الجصاص: اتفاق فقهاء الأمصار على جواز قتل الأسير، ولا نعلم بينهم اختلافاً فيه، وقد تواترت الأخبار عن النبى عليه الصلاة

(١) صورة من حياة الرسول /٢٢٢.

(٢) تمهيد السير الكبير /٧٤.

(٣) قانون الحرب والسلام: للدكتور سامى جنينة /٢٨٢ والقانون الدولى العام ٦٩٧ أبو هيف.

والسلام فى قتله الأسير. منها قتله عقبة بن أبى معيط، والنضر بن الحارث يوم بدر، وقتل النبى أبا عزة الشاعر يوم أحد بعد أسره، وقتل بنى قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ، فحكم فيهم بالقتل وسبى الذرية، ومن على الزبير بن باطا من بينهم، وفتح خيبر بعضها صلحا وبعضها عنوة، وشرط على ابن أبى الحقيق ألا يكتم شيئاً، فلما ظهر على خيانته وكتمانه قتله، وفتح مكة وأمر بقتل هلال بن اخطل، ومقيس بن صبابه، وعبدالله بن سرح. وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة. إلى أن قال: فهذه آثار متواترة عن النبى وعن الصحابة فى جواز قتل الأسير وفى استبقائه واتفق فقهاء الأمصار على ذلك(١) وأدلة هؤلاء الفقهاء الذين قالوا بجواز قتل الأسير:

١ ـ ان آية ﴿ فإمَّا منًّا بعْدُ وإمَّا فداءً ﴾ منسوخة. والذى نسخها آية السيف فى سورة براءة «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» وهى آخر سورة نزلت بالتوقيف، فوجب أن يقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجزية(٢).

وقالوا : لأن الأمن عن القتل إنما يثبت بالأمان أو الإيمان، وبالأسر لا يثبت شىء من ذلك فسيبقى مباح الدم على ما كان قبل الأسر(٣).

---

(١) تفسير الجصاص ٣/٣٩١.

(٢) سنن البيهقى ٦/٣٢٣ والقسطلانى ٦/٣٧٨ والناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم للنحاس ٢٢٠ والناسخ والمنسوخ / ٢٨٩ لابن سلامة والأموال/١٢٨.

(٣) السير الكبير ٣/١٠٢٤ تحقيق د. صلاح الدين المنجد.

## الرد على القائلين بنسخ الآيتين:

قال النحاس: القول إن الآيتين محكمتان قول حسن، لأن النسخ لا يكون إلا لشيء قاطع، إذا كان الأسر جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمن، على ما فيه الصلاح للمسلمين. وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد(١).

وقال ابن كثير(٢): ادعى بعض العلماء أن هذه الآية منسوخة والأكثرون ليست بمنسوخة.

وقال ابن جبير(٣): والصواب من القول عندنا أن هذه الآية محكمة غير منسوخة، وذلك أن صفة الناسخ والمنسوخ غير متوفرة. وغير مستنكر أن يكون جعل الخيار في المن والفداء والقتل إلى الرسول وإلى القائمين من بعده بأمر الأمة، وقد رأى هذا الرأي ابن عباس وابن عمر والحسن وعطاء، وهو مذهب مالك والشافعي والأوزاعي وأبي عبيد والقاسمي.

وقال القرطبي وهو الاختيار لأن النبي والخلفاء الراشدين فعلوا ذلك(٤).

وقال ابن زيد: الآيتان محكمتان وهو الصحيح. لأن المن والقتل والفداء لم يزل من حكم رسول الله فيهم من أول حرب حاربهم، وهو يوم بدر(٥).

---

(١) تفسير القرطبي ٢٢٨/١٦.
(٢) تفسير ابن كثير ٧٣/٤.
(٣) تفسير الطبري ٤٧,٢٦ ط الحلبي.
(٤) محاسن التأويل ٥٣٧٥/١٥ وتفسير القرطبي ٢٢٨/١٦ و٧٣/٨.
(٥) تفسير القرطبي ٧٣/٨.

وقال ابن قدامة[١]: وقوله تعالى ﴿اقتلوا المشركين﴾ عام لا ينسخ به الخاص، والإمام فى رأيه مخير فى الأسرى تخيير مصلحة واجتهاد لا تخيير شهوة فمتى رأى خصلة أصلح تعينت عليه ولم يجز العدول عنها. فبعض الأسرى له قوة نكاية بالمسلمين وبقاؤه ضرر عليهم فقتله أصلح، ومنهم الضعيف الذى له مال كثير ففداؤه أصلح. ومنهم حسن الرأى فى المسلمين يرجى إسلامه بالمن عليه أو معونته للمسلمين بتخليص أسرارهم والدفع عنهم فالمن عليه أصلح. ومنهم من ينتفع بخدمته ويؤمن شره فاسترقاقه أصلح كالنساء والصبيان والإمام أعلم بالمصلحة فينبغى أن يؤمن ذلك إليه».

أما الذين أكاد أجزم بصحته أن الآيتين محكمتان وآية ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ هى الآية الوحيدة فى القرآن التى نصت صراحة على حكم الأسرى فى الإسلام. وهى ليست منسوخة لأن النسخ إنما يكون عند المعارضة فى الحكم وما دامت هى الوحيدة فمن أين تأتى المعارضة.. أما آية براءة المذكورة التى زعموا أنها نسخت هذه الآية فهى ليست فى حكم الأسرى وإنما هى فى قتال المشركين وقتلهم حيث وجدوا ولا تفيد أبداً أن هذا يكون بعد أسرهم.

وفى رأيى أنه لا يجوز للإمام إلا «المن أو الفداء» أما القتل والاسترقاق فهو أقرب إلى التحريم منه إلى الإباحة، لأن الآية أيضاً لم تمنع القتل وتحرمه تحريماً مطلقاً. وعلى هذا يمكننا القول إن المن والفداء، هى القاعدة العامة وما عداها فهو شاذ يبحث عن سببه.

---

(١) المغنى ١٠/٢١٤.

ويمكننا معرفة الأسباب التى دعت رسول الله إلى قتل بعض الأسرى، فلم يقتل من أسرى بدر السبعين إلا اثنين لقسوتهما وجرائمهما السابقة فى حق المسلمين وفى حق رسول الله نفسه إذ كان كلاهما شيطاناً من شياطين قريش، ومن أشد المشركين إيذاء للنبى وصحبه الكرام، وأفظعهم تقولاً على كتاب الله وصدا عن سبيله.

روى الشعبى[1] أنه لما أمر رسول الله بقتل عقبة قال: «أتقتلنى يا محمد من بين قريش؟ قال؟: نعم! أتدرون ما صنع هذا بى؟ جاء وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عنقى وغمزها، فما رفعها حتى ظننت أن عينيي ستندران وجاء مرة أخرى بسلا شاة فألقاه على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى. وجاءه مرة وهو يصلى فى حجر الكعبة فوضع ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه، ودفعه عن النبى وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله فأنزل الله فى قوله: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾[2].

وقال: أبى بن خلف وكان صديقاً لعتبة: «وجهى من وجهك حرام إن لم تأت محمدا فتتغل فى وجهه ففعل عدو الله ذلك لعنه الله»[3].

فأنزل تعالى فيهما: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾[4].

(١) صحيح البخارى ٥/٥٧.
(٢) غافر: ٢٨.
(٣) صحيح البخارى ٥/٥٧ و٥٨ والسيرة النبوية، لدحلان وسيرة ابن هشام ٢/٣٦١ وصور من حياة الرسول /٣٢٩.
(٤) الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩.

هذه هى بعض جرائم عقبة بن أبى معيط فى حق رسول الله وحده، وما فعله مع المسلمين أشد وأنكى، أما النضر بن الحارث، فكان إذا جلس رسول الله مجلساً فدعا فيه إلى الله تعالى وتلافيه القرآن، وحذر فيه قريشاً ما أصاب الزمم الخالية خلفه فى مجلسه إذ قام، فحدثهم عن رستم واسفنديار، وملوك فارس ثم يقول والله ما محمد بأحسن حديثاً منى، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها[١]. فأنزل الله تعالى فيه ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾. إلى قوله ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾[٢].

ونزل فيه أيضاً ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾[٣]. ونزل فيه ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ⑦ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[٤].

وعقبة بن أبى معيط والنضر بن الحارث وأمثالهما ليسا أسرى حرب وإنما هما وأمثالهما مجرموا حرب بلغة العصر الحديث[٥]. فالرسول لم يقتلهما بسبب وقوعهما فى الأسر ولكن لجرائم سابقة شهد عليها القرآن الكريم وكتب الحديث والسيرة.

ويقف غير واحد من المستشرقين عند قتل هذين المجرمين ويتساءل: أليس فى ذلك ما يدل على ظمأ هذا الدين الجديد إلى الدم،

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٣٥٨.
(٢) الفرقان: ٥، ٦.
(٣) القلم: ١٥.
(٤) الجاثية: ٨.
(٥) الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام / ٢٩٤ أبو هيف ٦٥٠، ٦٥٢ ومجلة الرسالة عدد ٦٥٩ لسنة ١٩٤٦.

على أن هذا التساؤل لم يلبث أن ينهار ويتداعى إذا نحن وازنا بين صنيع المسلمين، وما يجرى اليوم وما سيجرى دائماً ما دامت الحضارة الغربية التى تتشح بوشاح المسيحية، متحكمة فى الأرض، فهل تراه يوازى شيئاً إلى جنب ما يقع باسم قمع الثورات فى بلاد يحكمها الاستعمار على كره من أهلها وهل تراه يوازى شيئاً مما حدث فى أثناء الثورة الفرنسية الكبرى وفى الثورات التى وقعت وتقع فى أوروبا، وليس من شك فى أن الأمر بين محمد وأصحابه كان ثورة قوية منذ بعثه الله ليقوم فى وجه الوثنية والمشركين من عبادها[1].

أما حادثة بنى قريظة التى استشهد بها الجصاص وأصحاب المذهب الحنفى، وهلل لها المستشرقون ورفعوا عقائرهم صائحين! المسلمون متعطشون لسفك دماء اليهود ومتعصبون.. إلخ.

فإننا نستطيع أن نردها إلى الأسباب التالية:

١ ـ أنهم ليسوا أسرى حرب، وإنما كانوا من مواطنى الدولة ورعاياها الذين يدينون لها بالطاعة ويتمتعون بكل حقوق أهلها، وقد أعطوا على أنفسهم عهودهم ومواثيقهم ألا يخونوا ولا يغدروا ولا يعينوا عدواً ولا يقدموا يداً بأذى، فغدروا وخانوا فى أحرج الظروف وطعنوا المسلمين من خلفهم بتآمرهم على الدولة مع أعدائها فى أثناء الحرب، بانضمامهم إلى جيش الأحزاب، واعلانم الحرب على المسلمين. وكادت خيانتهم تعصف بالمسلمين وتقضى عليهم جميعاً لولا عناية الله وكرمه فهم من اشباه الخارجين على الدولة ومن أعتى ـ المجرمين المفسدين الذين يسعون فى الأرض فساداً ليهلكوا الحرث والنسل وقد نص القرآن

(١) حياة محمد /٢٧٣ و٢٧٤ هيكل.

الكريم على عقوبة أمثالهم بقوله ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ﴾[1].

٢ ـ إن الأمر فى شأنهم انتهى إلى تحكيم سعد بن معاذ وهم من مواليه فحكم عليهم بشريعتهم بعد أن سلموا على شرط، فحكمه جاء موافقاً لشريعة اليهود وحيث يحتكم الطرفان المتنازعان فالقول ما قضاه الحكم. ولقد قال رسول الله لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة»[2].

٣ ـ كان حكم سعد جزاء وفاقاً لجريمة الخيانة العظمى التى ارتكبوها والذى تعمل به كل الدول فى القديم والحديث[3].

٤ ـ أنه على فرض اعتبارهم أسرى حرب فقد نزل فى شأنهم حكم خاص دون الحكم العام فى شأن غيرهم من أسرى الحروب حيث أذن الله تنفيذ حكم سعد بن معاذ بقوله تعالى فى سورة الأحزاب: ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾[4] . أى تقتلون الرجال وتأسرون النساء والذرية[5].

ولم يستنكرون ذلك؟ أفلم يقرأوا ما جاء فى الاصحاح الثالث عشر

---

(١) سورة المائدة: ٣٣.

(٢) البخارى ٥/١٣٤ وسيرة ابن هشام ٣/٧٢١ تحقيق محيى الدين عبدالحميد.

(٣) الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام ٢٢٢ والرسالة الخالدة للأستاذ عبدالرحمن عزام ١١١، ١١٢ والجهاد فى الإسلام للأستاذ محمد شديد / ١٤٨.

(٤) سورة الأحزاب: ٢٦.

(٥) تفسير القرطبى ١٤/١٦١.

من تثنيه الاشتراع فى العهد القديم «فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرقها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها وتحرق بالنار المدينة ولك أمتعتها كاملة للرب الهك فتكون تلا إلى الأبد لا تبنى بعد[١].

وما جاء فى الاصحاح العشرين (فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكررها بحد السيف، أما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك»[٢].

ويظهر جلياً من هذه النصوص أن سعد بن معاذ حليف اليهود فى الجاهلية كان على علم بها فحكم فيهم بنص كتبهم.

أما مجرمو الحرب فى مكة فكانوا خمسة عشر شخصاً فيما تروى كتب السيرة أمر رسول الله بقتلهم ساعة دخل مكة ولم يكن قرار القتل لحقد منه أو غضب عليهم، فهو لم يكن يعرف الحقد، ولكن لجرائم كبيرة ارتكبوها فأحدهم عبدالله بن أبى السرح كان قد أسلم وكان يكتب الوحى للرسول فارتد مشركاً إلى قريش زاعماً أنه كان يزيف الوحى حين يكتبه. وهلال بن خطل كان قد أسلم ثم قتل مولى له وارتد مشركاً وأمر جاريتيه أن تغنيا بهجاء رسول الله ومقيس ابن صبابة، وإنما أمر رسول الله بقتله، لقتل الأنصارى الذى قتل أخاه خطأ، ورجوعه إلى قريش مشركاً)[٣].

---

(١) الاصحاح الثالث عشر ١٥، ١٦.

(٢) الاصحاح العشرين [العهد القديم] ١٠ _ ١٨.

(٣) سيرة ابن هشام ٨٦٧/٤، ٨٦٩ تحقيق محيى الدين عبدالحميد، وحياة محمد ٤٢٤، ٤٢٥ هيكل.

ولما استقر الأمر وهدأت الحال ورأى الناس من فسحة صدر رسول الله ومن عفوه الشامل ما رأوه، طمع بعض أصحابه أن يعفو عن هؤلاء الذين أمر بقتلهم فعفى عنهم جميعاً ولم يقتل إلا هؤلاء الثلاثة عبدالله بن أبى سرح وهلال بن خطل ومقيس بن صبابة لجرائمهم الشنيعة من كفر وارتداد عن الإسلام وقتل النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق وهجاء لرسول الله. فكل جريمة من جرائمهم تستحق القتل ولكن الواحد منهم قد جمع أكثر من جريمتين أو ثلاث فهم مجرمو حرب وليسوا أسرى حرب.

وبهذا نؤكد مرة أخرى أن قتل الأسرى أقرب إلى التحريم منه إلى الإباحة، وأن أبيح فهو دواء ناجح فى حالات فردية خاصة وللضرورة القصوى، لحسم مادة الفساد إن خيف إلا تحسم بغير هذه الذريعة، وليس ذلك علاجاً لحالات جماعية[١].

وقد منع الشافعى رحمه الله وأبو يوسف قتل الأسرى إلا لأسباب معينة كالحاجة إلى إضعاف العدو وإغاظته أو ما تمليه المصلحة العامة العليا للمسلمين[٢].

وبهذا يظهر جلياً أن الإسلام بمنأى عما كان سائداً فى القرون الوسطى من إعدام الأسرى وذبحهم[٣]. وما يفعله الأوربيون فى حروبهم الحديثة كما صنع نابليون فى عكا سنة ١٧٩٩م فإنه أباد ما يزيد عن أربعة آلاف شخص بعد تسليمهم[٤].

---

(١) آثار الحرب فى الفقه الإسلامى/ ٤٠.
(٢) الأم ٤/١٧٦، والخراج /١٩٥.
(٣) القانون الدولى العام - أبو هيف /٦٧٨.
(٤) العلاقات السياسية الدولية للعمرى.

**توجيه القرآن الكريم لأسرى بدر:**

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧٠) وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم ﴾ أى لهؤلاء الأسرى الذين أسرتموهم يوم بدر.

﴿ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا ﴾: من حسن إيمان وصلاح نية.

﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾: من الفداء: أى يعوضكم فى هذه الدنيا رزقاً خيراً منه، وأنفع لكم أو فى الآخرة بما يكتبه لكم من المثوبة والأعمال الصالحة.

﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾: فإنه وعد بالمغفرة والرحمة لعباده[١].

﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ ﴾ : أى نقض ماعاهدوك عليه من اعطاء الفدية أو أن لا يعودوا لمحاربتك ولا إلى معاضدة المشركين، ويجوز أن يكون المراد وأن يريدوا نكث ما بايعوك عليه من الإسلام والردة واستحباب دين آبائهم.

﴿ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ : بالكفر ونقض ميثاقه المأخوذ على كل عاقل بل أدعى بعضهم أنه الأقرب.

---

(١) فتح القدير للشوكانى.

﴿ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ : أى أقدرك عليهم حسبما رأيت فى بدر فإن أعادوا الخيانة فاعلم أنه سيمكنك الله تعالى منهم أيضاً.

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ : فيعلم ما فى نياتهم وما يستحقونه من العقاب ويفعل كل ما يفعل حسبما تقتضيه الحكمة البالغة(١).

## مناسبة الآيات لما قبلها:

فى الآيات السابقة كانت هناك إشارة إلى أخذ الرسول ﷺ للفدية من الأسرى يوم بدر وكان فى ذلك بعض المشقة عليهم وأيضاً قبل ذلك كان الخطاب متعلقاً بالتحريض على القتال وما يتبعه، فكانت هذه الآيات استئناف ابتدائى وهو إقبال على خطاب النبى ﷺ بشىء يتعلق بحال سرائر الأسرى وأيضاً طمأنة لنفس الرسول وليبلغ مضمونه للأسرى.

## سبب نزول الآية:

قال الواحدى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ ﴾ الآية، قال الكلبى: نزلت فى العباس بن عبدالمطلب وعقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث، وكان العباس أسر يوم بدر، ومعه عشرون أوقية من الذهب كان خرج بها معه إلى بدر ليطعم بها الناس، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا طعام أهل بدر ولم يكن بلغته النوبة حتى أسر فأخذت معه، وأخذها رسول الله ﷺ، قال: فكلمت رسول الله أن يجعل لى العشرين الأوقية الذهب التى أخذها منى من فدائى فأبى على وقال: أما شىء خرجت تستعين به علينا فلا. وكلفنى فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية من فضة، فقلت له: تركتنى والله أسأل قريشاً بكفى والناس ما بقيت، قال: فأين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل قبل مخرجك إلى

---

(١) تفسير الألوسى.

بدر، وقلت لها: إن حدث بى فى وجهى هذا فهو لك ولعبدالله والفضل وقثم؟ قال: فقلت: وما يدريك؟ قال: أخبرنى الله بذلك. قلت: أشهد أنك لصادق، وإنى قد دفعته إليها بالذهب ولم يطلع عليه أحد إلا الله، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وإنك رسول الله. قال العباس: فأعطانى الله خيراً مما أخذ منى - كما قال - عشرين عبداً كلهم يضرب بمال كثير مكان العشرين الأوقية، وأنا أرجو المغفرة من ربى(١).

يقول الإمام الألوسى: وذهب آخرون من المفسرين إلى أنها نزلت فى جميع أسرى بدر(٢).

ويقول الفخر الرازى تعليقاً على رأى المفسرين هذا بقوله: وهذا أولى، لأن ظاهر الآية يقتضى العموم من ستة أوجه:

أحدها: قوله: ﴿ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم ﴾.

ثانيها: قوله: ﴿ مِّنَ الأَسْرَىٰ ﴾.

ثالثها: قوله: ﴿ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾.

رابعها: قوله: ﴿ يُؤْتِكُمْ خَيْراً ﴾.

خامسها: قوله: ﴿ مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ ﴾.

سادسها: قوله: ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾.

فلما دلت هذه الألفاظ الستة على العموم، فما الموجب للتخصيص؟ أقصى ما فى الباب أن يقال: سب نزول هذه الآية هو العباس، إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب(٣).

---

(١) الواحدى فى أسباب النزول والمستدرك ومجمع الزوائد والدر المنثور.

(٢) تفسير الألوسى.

(٣) تفسير الفخر الرازى.

وهذه القاعدة التى ذكرها الإمام الرازى من أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب وتعميم الأحكام الواردة فيما نزل فى هذه الاية هو ما نراه الرأى الأسلم والأصح مع وضعنا فى الاعتبار أن سبب نزول الآية هو العباس رضى الله عنه.

**المعنى التفصيلى للآيات:**

يخاطب الله سبحانه وتعالى نبيه بحال الأسرى وما يدور فى نفوسهم فمن رغب منهم فى محبة الإيمان وعزم عليه وآمن بعد هذا الفداء يؤته الله خيراً مما أخذ منه، والمراد بالآية ليس إيتاء الخير على مجرد محبة ا لإيمان والميل إليه، كما أخبر العباس عن نفسه، بل المراد به ما يترتب على تلك المحبة من الإسلام بقرينة قوله ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وكذلك ليس الخير الذى فى قلوبهم هو الجزم بالإيمان لأن ذلك لم يدعوه ولا عرفوا به و ﴿ مَّا أُخِذَ ﴾ هو مال الفداء والخير منه هو الأوفر من المال بأن ييسر لهم أسباب الثروة بالعطاء من أموال الغنائم وغيرها، فقد أعطى رسول الله ﷺ العباس بعد إسلامه من فىء البحرين، وإنما حملنا الخير على الأفضل من المال لأن ذلك هو الأصل فى التفضيل بين شيئين أن يكون تفضيلاً فى خصائص النوع، ولأنه عطف عليه قوله ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ وذلك هو خير الآخرة المترتب على الإيمان لأن المغفرة لا تصلح إلا للمؤمن.

والضمير فى ﴿ يُرِيدُوا ﴾ عائد إلى من فى أيديكم من الأسرى، وهذا كلام خاطب به الله رسوله ﷺ اطمئناناً لنفسه، وليبلغ مضمونه إلى الأسرى ليعلموا أنهم لا يغلبون الله ورسوله. وفيه تقرير للمنة على المسلمين التى أفادها بقوله ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ﴾ فكمل ذلك

الأذن والتطييب بالتهنئة والطمأنة بأن ضمن لهم، أن خانهم الأسرى بعد رجوعهم إلى قومهم ونكثوا عهدهم وعادوا إلى القتال، بأن الله يمكن المسلمين منهم مرة أخرى. كما أمكنهم منهم فى هذه المرة، أى: أن ينووا من العهد بعدم العود إلى الغزو خيانتك، وإنما وعدوا بذلك لينجوا من القتل والرق، فلا يضركم ذلك لأن الله ينصركم عليهم ثانى مرة، والخيانة نقض العهد وما فى معنى العهد كالأمانة(١).

**فى طبيعة العلاقات فى المجتمع المسلم:**

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾.

**معانى المفردات:**

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : يعنى: المهاجرين الذين هجروا ديارهم وأموالهم وقومهم فى نصرة الدين.

---

(١) التحرير والتنوير.

﴿ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا ﴾ : يعنى الأنصار، آووا رسول الله، وأسكنوا المهاجرين ديارهم، ونصروهم على أعدائهم.

﴿ أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ : فيه قولان: أحدهما فى النصرة. الثانى: فى الميراث.

قال المفسرون: كانوا يتوارثون بالهجرة، وكان المؤمن الذى لم يهاجر لا يرث قريبه المهاجر، وهو معنى قوله ﴿ مالكم من ولايتهم من شيء ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم والكسائى ﴿ ولا يتهم ﴾ بفتح الواو، وقرأ حمزة: بكسر الواو. قال الزجاج المعنى: ليس بينكم وبينهم ميراث حتى يهاجروا. ومن كسر واو الولاية، فهى بمنزلة الإمارة، وإذا فتحت فهى من النصرة. وقال يونس النحوى: الولاية، بالفتح، لله عز وجل، والولاية بالكسر، من وليت الأمر، وقال أبو عبيدة: الولاية بالفتح للخلق والولاية بالكسر، للمخلوق. قال ابن الأنبارى: الولاية بالفتح للخالق والولاية بالكسر، للمخلوق. قال الأنبارى: الولاية ووال بين الولاية، فهذا هو الاختيار، ثم يصلح فى ذا ما يصلح فى ذا. وقال ابن فارس: الولاية بالفتح: النصرة، وقد تكسر. والولاية بالكسر: السلطان(١).

﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ : أى: أن استنصركم المؤمنون الذين لم يهاجروا فانصروهم إلا أن يستنصروكم على قوم بينكم وبينهم عهد، فلا تغدروا بأرباب العهد. وقال بعضهم: لم يكن على المهاجر أن ينصر من لم يهاجر إلا أن يستنصره.

---

(١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ : فيه قولان:

أحدهما: في الميراث، قاله ابن عباس.

الثاني: في النصرة قاله قتادة.

وفي قوله : ﴿ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ ﴾ : قولان:

أحدهما: أنه يرجع إلى الميراث، فالمعنى: ألا تأخذوا في الميراث بما أمرتكم ، قال ابن عباس.

الثاني: أنه يرجع إلى التناصر، فالمعنى: ألا تتعاونوا وتتناصروا في الدين، قاله ابن جريج، وبيانه: أنه إذ لم يتول المؤمن المؤمن توليا حقاً، ويتبرأ من الكافر جداً، أدى ذلك إلى الضلال والفساد في الدين، فإذا هجر المسلم أقاربه الكفار، ونصر المسلمين، كان ذلك أدعى لأقاربه إلى الإسلام وترك الشرك.

﴿ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾ : قرأ أبو هريرة، وابن سيرين، وابن السميع: (كثير) بالثاء.

﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ : أي: هم الذين حققوا إيمانهم بما يقتضيه من الهجرة والنصرة بخلاف من أقام بدار الشرك، والرزق الكريم: في الجنة.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِن بَعْدُ ﴾ : أي : من بعد المهاجرين الأولين قال ابن عباس هم الذين هاجروا بعد الحديبية.

﴿ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ ﴾ : أي: في المواريث بالهجرة. قال ابن عباس: آخى النبي ﷺ بين أصحابه، وكانوا يتوارثون بذلك الإخاء حتى نزلت هذه الاية، فتوارثوا بالنسب.

﴿ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ : فيه ثلاث أقوال:

أحدهما: أنه اللوح المحفوظ.

الثانى: القرآن ـ وقد بين لهم قسمة الميراث فى سورة [النساء: ١١١، ١١٢]:

﴿ ومن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١) وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾.

والثالث: أنه حكم الله، ذكره الزجاج(١).

**مناسبة الآيات لما قبلها:**

فى الآيات السابقة استعرض القرآن الكريم علاقة المؤمنين بغيرهم فى الحرب والسلام فكان من المناسب فى هذه الآيات وهى ختام السورة الاعلام بأحكام موالاة المسلمين للمسلمين الذين هاجروا والذين لم يهاجروا وعدم موالاتهم للذين كفروا، يقول ابن عطية:

مقصد هذه الآية وما بعدها تبيين منازل المهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار، والمهاجرين بعد الحديبية وذكر نسب بعضهم عن بعض.

**المعنى التفصيلى العام للآيات:**

وأخيراً يختم هذا الدرس، وتختم السورة معه، ببيان طبيعة العلاقات فى المجتمع المسلم وطبيعة العلاقات بينه وبين المجتمعات الأخرى، وبيان الأحكام المنظمة لهذه العلاقات وتلك ومنه تتبين طبيعة المجتمع

(١) المصدر السابق.

المسلم ذاته، والقاعد التى ينطلق منها والتى يقوم عليها كذلك.. أنها ليست علاقات الدم ولاعلاقات الأرض، ولا علاقات الجنس، ولاعلاقات التاريخ ولا علاقات اللغة، ولا علاقات الاقتصاد.. ليست هى القرية، وليست هى الوطنية، وليست هى القومية، وليست هى المصالح الاقتصادية. إنما هى علاقة العقيدة[١].

﴿ إنَّ هذه أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحدَةً وأَنَا ربُّكُمْ فَاعْبُدُون ﴾[٢].

﴿ إنَّ أكْرمكُمْ عندَ اللَّه أتْقاكُمْ ﴾[٣].

ووحدة المبادىء إذن تنتج فى الإسلام وحدة الأمة تضامنها منها، وتكافلها فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض.

إن المسلم مرتبط بالمسلم أينما كان، ونجدته واجبة أينما وجد، ويذكرنا الله تعالى برابطة المبادىء هذه، وبأنها نعمة من الله تعالى فى مقابل ما صنعه البشر، من عبث وأهواء، تجعل الارتباط يقوم على أساس اللون، أو الجغرافية مما يخجل الإنسانية حينما تتخلص من أهوائها، أن كون قد جعلت منه أساساً للارتباط وتحديد الأوطان.

﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّه جَميعًا ولا تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّه عَلَيْكُمْ إذْ كُنتُمْ أعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ﴾[٤].

---

(١) فى ظلال القرآن للأستاذ سيد قطب.

(٢) سورة الأنبياء آية: ٩٢.

(٣) سورة الحجرات آية: ١٣.

(٤) سورة آل عمران: ١٠٣.

ويقول الأستاذ سيد قطب: والولاية بين المسلمين فى أبان نشأة المجتمع المسلم إلى يوم بدر، كانت ولاية توارث وتكافل فى الديات وولاية نصرة وأخوة قامت مقام علاقات الدم والنسب والقرابة. حتى إذا وجدت الدولة ومكن الله لها بيوم الفرقان في بدر بقيت الولاية للنصرة، ورد الله الميراث والتكافل فى الديات إلى قرابة الدم، داخل المجتمع المسلم.. فأما الهجرة التى يشير إليها النص ويجعلها شرطاً لتلك الولاية ـ العامة والخاصة ـ فهى الهجرة من دار الشرك إلى دار السلام ـ لمن استطاع ـ فأما الذين يملكون ولم يهاجروا، استمساكاً بمصالح أو قرابات مع المشركين، فهؤلاء ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية، كما كان الشأن فى جماعات من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا والمثل هذه الملابسات، وكذلك بعض أفراد فى مكة من القادرين على الهجرة.. وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم ـ إن استنصروهم فى الدين خاصة ـ على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم بينهم وبين المجتمع المسلم عهد، لأن عهود المجتمع المسلم وخطته أولى بالرعاية[1]!

ثم بين الله تعالى الحكم للقسم المقابل لقوله ( ان الذين آمنوا وهاجروا ) وما عطف عليه، ( والذين كفروا بعضهم أولياء بعض الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير ) . والواو للتقسيم والاخبار عنهم بأن بعضهم أولياء بعض خبر مستعمل فى مدلوله الكنائى : وهو

---

(١) المرجع السابق.

أنهم ليسوا بأولياء للمسلمين لأن الاخبار عن ولاية بعضهم بعضا ليس صريحه مما بهم المسلمين لولا ان القصد النهى عن موالاة المسلمين أياهم، وبقرينة قوله ( الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) أى : ان لا تفعلوا قطع الولاية معهم، فضمير تفعلوه عائد الى ما فى قوله ( بعضهم أولياء بعض ) بتأويل : الذكر، لظهور أن ليس المراد تكليف المسلمين بأن ينفذوا ولاية الذين كفروا بعضهم بعضا، لو لا ان المقصود لازم ذلك وهو عدم موالاة المسلمين اياهم .

والفتنة تحصل من مخالطة المسلمين مع المشركين، لأن الناس كانوا قريبى عهد بالإسلام، وكانت لهم مع المشركين أواصر قرابة وولاء ومودة ومصاهرة ومخالطة، وقد كان اسلام من أسلم مثيرا لحنق المشركين عليه، فإذا لم ينقطع المسلمون عن موالاة المشركين يخشى على ضعفاء النفوس من المسلمين أن تجذبهم تلك الأواصر وتفتنهم قوة المشركين وعزتهم، ويقذف بها الشيطان فى نفوسهم، فيحنوا إلى المشركين ويعودوا إلى الكفر، فكان إيجاب مقاطعتهم لقصد قطع نفوسهم عن تذكر تلك الصلاة، وانسائهم تلك الأحوال، بحيث لا يشاهدون الاحال جماعة المسلمين، ولا يشتغلوا الا بما يقويها، وليكونوا فى مزاولتهم أمور الاسلام عن تفرغ بال من تخسر أو تعطف على المشركين، فان الوسائلب قد يسرى بعضها إلى بعض فتقضى وسائل الرأفة والقرابة إلى وسائل الموافقة فى الرأى فلذا كان هذا حسما لوسائل الفتنة(١) .

ولما ذكر الله تعالى حكم المؤمنين فى الدنيا عطف بذكر ما لهم فى الآخرة، فأخبر عنهم بحقيقة الإيمان كما تقدم فى أول السورة وانه

---

(١) التحرير والتنوير لفضيلة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .

سبحانه سيجازيهم بالمغفرة والصفح عن الذنوب ان كانت، وبالرزق الكريم وهو الحسن الكثير الطيب الشريف دائم مستمر أبدا لا ينقطع ولا ينقضى ولا يسأم ولا يمل لحسنه وتنوعه ثم ذكر ان الاتباع لهم فى الدنيا على ما كانوا عليه من الايمان والعمل الصالح فهم معهم فى الآخرة[١] .

ثم أخبر سبحانه بأن من هاجر بعد هجرتهم وجاهد مع المهاجرين الأولين والأنصار فهو من جملتهم : أى من جملة المهاجرين الأولين والأنصار فى استحقاق ما استحقوه، من الموالاة والمناصرة وكمال الإيمان والمغفرة والرزق الكريم[٢] .

قال جمهور المفسرين قوله : ( فأولئك منكم ) أى مثلكم فى النصر والموالاة قال مالك : ان الآية ليست فى المواريث، وقال أبو بكر بن العربى : قوله ( فأولئك منكم ) : يعنى فى الموالاة والميراث على اختلاف الأقوال، أى اختلاف القائلين فى أن المهاجر يرث الأنصارى والعكس، وهو قول فرقة، وقالوا : إنها نسخت بآية المواريث[٣] .

وفى ذلك يقول الفخر الرازى :

( واعلم أن لفظ الولاية غير مشعر بهذا المعنى[٤]، لأن اللفظ مشعر بالقرب على ما قررناه فى مواضع من هذا الكتاب، ويقال : السلطان ولى من لا ولى له، ولا يفيد الارث، وقال تعالى : ( الا ان أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ) ولا يفيد الارث، بل الولاية تفيد القرب فيمكن عمله على غير الارث، وهو كون بعضهم معظما للبعض مهتما بشأنه

---

(١) تفسير ابن كثير .
(٢) فتح القدير للشوكانى .
(٣) التحرير والتنوير .
(٤) معنى الارث .

مخصوصا بمعاونته ومناصرته، والمقصود ان يكونوا يداً واحدة على الأعداء، وان يكن حب كل واحد لغيره جارياً مجرى حبه لنفسه، وإذا كان اللفظ محتملاً لهذا المعنى كان حمله على الإرث بعيداً عن دلالة اللفظ، لاسيما وهم يقولون أن ذلك الحكم صار منسوخاً بقوله تعالى فى آخر الآية: ﴿وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وأى حاجة تحملنا على حمل اللفظ على معنى لا اشعار لذلك اللفظ به، ثم الحكم بأنه صار منسوخاً بآية أخرى مذكورة معه، هذا فى غاية البعد، الهلم إلا إذا حصل اجماع المفسرين على أن المراد ذلك فحينئذ يجب المصير إليه، إلا أن الدعوى الاجماع بعيد[1].

ونحن مع الفخر فى عدم تخصيص الموالاة بالإرث، ولكن إذا كان يقصد من كلامه أو الولاية لا تشمله مع النصر، فنحن لا نوافقه، وعلى ذلك فما نطمئن إليه هو حمل لفظ الولاية على التعميم الذى يشمل كل أنواع النصرة مع الإرث.

وعلى ذلك يكون معنى الآية هنا: أنها فى ولاية خاصة بعد ذكر الولاية العامة فالولاية العامة هى ما تحكم المجتمع المؤمن كله، وهى ولاية العقيدة وأخوة الإيمان، أما تلك فهى ولاية الرحم، فأصحاب الأرحام من المؤمنين مطالبون ـ من باب أولى ـ أن يتولى بعضهم بعضاً معونة ونصرة وصلة ومودة، والله تعالى قد أوجب ذلك فى دينه، لأنه دين الفطرة: ﴿كتاب الله عليكم﴾ أى حكمه وفرضه، وجعله أيضاً سبحانه من مقتضى غرائز الفطرة التى لبى عاطفتها النبى ﷺ فى توجيهه لخير الإنسان وبره[2].

---

(١) تفسير الفخر الرازى.

(٢) المفهوم الإسلامى للحرب والسلام.

(المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعض بعضاً ثم شبك النبى ﷺ بين أصابعه)[١].

(مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٢].

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[٣].

وجعل الله تعالى قطيعة الرحم نوع من أكبر أنواع الفساد يعاقب فاعله أشد العقاب ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾[٤].

﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : وهو التعقيب المناسب فى ختام السورة الكريمة بما يليق به تعالى من صفاته، فهى من العلم المحيط بكل شىء وذلك يشير إلى أن كل ما طرحته السورة من قضايا وما أتت به من حلول لها لا يحمل إلا المصلحة والخير العميم للمؤمنين.

هذا وفى الختام نقول كما قال الإمام ابن كثير: (آخر تفسير سورة الأنفال، ولله الحمد والمنة، وعليه التكلان، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد النور الهادى والسراج المنير وعلى آله وصحبه الأطهار الطيبين.

---

(١) رواه البخارى.
(٢) رواه مسلم.
(٣) وراه البخارى.
(٤) سورة محمد آية: ٢٢، ٢٣.



# محتويات الكتاب